

أنيس منصور

كيمياء الفضيحة



دار الشروق

كلمة أولى: من آدم وحواء إلى حرب النجوم!

في البدء كانت الفضيحة . .

كان الشعور بالفضيحة . . فقد كانت في الجنة شجرة محرمة . ولكن الشيطان ضحك على حواء التي ضحكت على آدم ، فأكل الاثنان منها . . وفجأة اكتشفا أنها عاريان تماما . . فراح الاثنان يتغطيان بأوراق الشجر . .

ويسبب هذه المعصية نزلا إلى الأرض . . أى بعد أن افتضح أمرهما . . وبعد أن ظهرا عاريين تماما كان لابد أن يخرجوا من الجنة ويكفروا عن هذه الغلطة . . هذه الخطيئة . . وكانت حياتها . . وحياتنا . . على هذه الأرض تكفيرا وتطهيرا واستمرارا في الخطايا والتكفير عنها . .

وعندما قتل قابيل أخاه هابيل . سئل : كيف حدث ذلك ؟

قال ما معناه : وهل أنا حارس لأخى ؟

يعنى لا أعرف من الذى قتله . ولم يكن غيرهما في هذه الدنيا . فهو القاتل . .

وترك جثمان أخيه مكشوفاً . . فجاء غراب ودفن غراباً قد مات . .
وعرف هذا الأخ القاتل أنه أقلّ فهماً من الغراب . .

وقبل ذلك عندما طلب الله إلى الملائكة أن يسجدوا لآدم .
فسجدوا . . إلا إبليس ، وكان كبير الملائكة ، رفض لأنه مصنوع من
النور ، وآدم مصنوع من التراب . والنور أشرف من التراب . ولكن فوجئ
بأن آدم أهم عند الله من إبليس . . وأن آدم له العقل والقلب وحب
المعرفة والقدرة على التطوير والإبداع . . وأهم من ذلك أنه ولد ليموت . .
فالحياء بلا موت قاسية . . فعندما يطول العمر وتكثر الأوجاع يتمنى
الإنسان الموت لأنه أرحم من الحياة . .

وكان آلهة الإغريق يحسدون الإنسان لأنه يموت . . أما هم فلا
يموتون . . فحياتهم مملة . . بل إن آلهة الإغريق كانوا يجعلون أنفسهم بشرًا
ليتمتعوا باللذات البشرية . . فهم يحسدون الإنسان على أنه فان وليس
خالداً . والخلود حياة واحدة مملة .

وشعر إبليس بأنه مفضوح . . بأنه جاهل . . بأنه مغرور . . وأن آدم
قد مسح به التراب الذي خرج منه . . وأنه رغم التراب أشرف عند الله . .

وقد رأيت في فيلم (الكتاب المقدس) الذى كتبه الشاعر الإنجليزى
كريستوفر فراى وقامت ببطولته صوفيا لورين . . رأيت أن دم هايبيل بن
آدم قد تسلى إلى مياه الأنهار ليشره كل أولاد آدم بعد ذلك . . فتكون
الخطيئة فى دمهم . . فالإنسان مخطئ . وحياته خطيئة . ومحاوله هروبه
من الخطيئة التى لها أول وليس لها آخر . .

ولولا فضيحتك أنت شخصيًا لكانت حياة جارك مملة . . فأنت متعته
التى لا تنتهى .

وقد تكون الفضيحة لحظة . . كأن يسقط منك بنطلونك فى حفلة
عامة !

وقد تكون الفضيحة عشرات السنين كأن يسقط البنطلون والجاكطة الشيوعية عن كل الدول التي كانت جزءاً من الإمبراطورية السوفيتية . . فقد جاء الزعيم جورباتشوف وفضح الانحلال والانتهازية والمخدرات والفساد الشيوعي . . فسقطت الشيوعية بعد سبعين سنة من الممارسة العنيفة . . وتفككت الدول التي كانت مربوطة بالحديد والنار والخوف . . فكان الاتحاد السوفيتي مثل الطائر ايكاروس الذي ألصقوا الريش في جناحيه بالشمع . . فلما اقترب من الشمس تساقط كل الريش . . وتحطم ايكاروس ، كذلك كل الدول الشيوعية !

فهى أكبر فضيحة مذهبية سياسية اجتماعية في التاريخ . .

أذكر أنني عندما كنت في أندونيسيا سنة ١٩٥٩ قرأت في الصحف أن الدولة قد أبطلت الأوراق المالية من فئة المائة والخمسين روبية . في تلك اللحظة قفزت من المقعد إلى الجلوس على الأرض ، فهذا هو المكان المناسب لواحد خسر كل ما لديه من مال . . تماماً مثل ايكاروس الذي سقط . . فقد سقطت . . وأحسست أنني عريان وبلا غطاء . . ولا أمل في غطاء . . واكتشفت أنني غلطان . فقد نصحوني أن احتفظ بأوراق ذات فئات صغيرة . ولكن اخترت الفئات الكبيرة حتى لا يتكدم ويتكدس الورق في جيبى . . ولكن ماذا كان يحدث لو تكدم الورق أو تكوم ؟ إنها غلطة وفضيحة ذكاء فقد توهمت أنني أذكى وأنى أقدر وأبعد نظراً من الآخرين . فكانت هذه النتيجة . .

ومن الممكن أن تكون فضيحة دولية . . فوزير الدفاع البريطانى بروفومو الذى يملك أسرار الحرب والسلاح والمخابرات . هذا الرجل كان عشيقاً لواحدة جميلة . . هذه العشيقة ، كانت عشيقة للملحق العسكرى الروسى . . فكانت أسرار بريطانيا في جيب الملحق العسكرى . فضيحة ما بعدها فضيحة . وانكشف ضعف الرجل أمام الجنس ، وضاعت أسرار بريطانيا بسبب ذلك !

إنها ليست فضيحة رجل ولا فضيحة وزير ، ولكن عار دولة من أولها
لآخرها . . وكارثة شعب استسلم لأحد رجاله وأثمنه على سر وجوده !
وغير بروفومو كثيرون مثل الرئيس كنيدي والرئيس نيكسون وولى عهد
بريطانيا . .



وهناك فضيحة عصر . .

فشاعرنا العظيم المتنبي كان يعيش على مدح الخلفاء والأمراء . . إن
أعطوه مدحهم ، إن منعوه شتمهم . . ثم يذهب إلى آخرين يمدح
ويقده . .

وكان المتنبي وهو أعظم شعراء العرب ، عاطلاً . . صناعته الشعر . .
وسلحته المدح والهجاء . .

وحياة المتنبي فضيحة لزمانه كله . . فالشعر لا ثمن له والشاعر
العظيم لا قدر له . . وإنما الشعر زينة الخلفاء والأمراء . . أما الشاعر
نفسه فلا شيء . لا هو قادر على طبع ديوان له . . ولو فعل فإن الديوان لا
يساوى وزنه ترابا . . وهكذا عاش مئات الشعراء عاطلين . وليس العيب
فيهم . ولكن العيب في زمانهم . . وليس نظم الشعر في أى غرض
فضيحة لهم . . ولكنها فضيحة العصر كله . .

والمقامات هى تأكيد لذلك . .

ففى مقامات بديع الزمان الهمداني ومقامات الحريري . . نجد البطل
رجلاً يتظاهر بالفقر ويبهز الناس بعلمه ويضحكهم لكى يعطوه . .
وهو يرتزق بعد أن يجعل نفسه أراجوزاً بليغاً فصيحاً . . ثم يكتشف الناس
أنه أبو زيد السروجي . . أو أبو الفتح السكندري الذى يصف نفسه
قائلاً :

تعارجت لا رغبة في العرج
ولكن لأقرب باب الفرج
وأحمل جبلى على غاربي
وأسلك مسلك من قد مرج
فإن لا منى القوم قلت اعذروا
فليس على أعرج من حرج

فالرجل ليس أعرج ، ولكنه يتعارج . . وليس بهلواناً ، ولكنه يفتعل ذلك !

فليس الأدب ولا الشعر ولا البلاغة ولا الفصاحة ، ولكن إضحاك الناس وإثارتهم ليكتشفوا أنه خدعهم وضحك عليهم . . وهم ينتظرون ذلك . ويطلبون منه المزيد في خداعهم . . وإلا فلن يعطوه مالا . .

ويسمى هذا الأسلوب في التحايل على الرزق : الكدبة . .

وهذا شأن الظرفاء في الأدب والشعر . . ليس الأدب وليس الشعر ولكن (الكدبة) أى التكسب بالأدب وبالشعر . . أى بأن يبذل الشاعر ماء وجهه من أجل الرغيف والكساء . .

ولم يعرف الأدب العربى رجلاً تعيشاً مثل (أبو حيان التوحيدي) فهو دميم مثل الحريرى والجاحظ والبحترى وسقراط . . وهو كافر بالدنيا وبالناس لأنه لا يجد لقمة إلا إذا بهر الناس بعلمه وحكاياته . . فإذا لم يفعل مات على باب الخليفة أو الأمير - منتهى الهوان . وفى نفس الوقت فضيحة لكل الناس ولكل العصر !



وقد مضى على الإنسان حين طويل من الدهر كان يشعر بأنه سيد الأرض . والأرض مركز الكون ، إذن هو سيد الكون . . فالشمس تدور

حول الأرض . . والنجوم في السماء عبارة عن (توتر) في ثوب الفضاء . .
خلقها الله ليتفرج عليها الإنسان ويمتتع ناظره . . والفضاء أزرق لأن هذا
اللون يريح العين . .

فالكون كله من أجل الإنسان . .

وظهرت نظريات في الفلك تؤكد أن الأرض هي التي تدور حول
الشمس . . وأن الشمس تدور حول نفسها . .

وأن الشمس بها فتحات تتسع لخمسين كرة أرضية . . وأننا نعيش في
منظومة . . إنها المنظومة الشمسية التي هي عبارة عن تسع كواكب تدور
حول نجم واحد هو الشمس . . وإن هناك أقمارًا تدور حول هذه الكواكب
يبلغ عددها ٥٤ قمرًا . . وإن الشمس ليست إلا نجما واحدًا ضمن ثلاثة
آلاف مليون نجم آخر في منظومة اسمها المجرة . . وإن في الكون ألوف
الملايين من المجرات . .

يعنى أن الأرض ليست مركز الكون . . وأن الإنسان ليس سيد
الكون . .

وظهرت نظرية تقول : إن الكون لو كان في مساحة أستاذ القاهرة فإن
المجرة التي نعيش فيها ليست إلا كرة بنج بنج عند حافة الأستاذ . .
وإن الإنسان ظهر على الأرض متأخرًا جدًا جدًا . . فالأرض عمرها
أربعة آلاف مليون سنة . .

فلو فرضنا أن عمر الكون سنة . . أى إن الله خلق الكون في الدقيقة
الأولى من أول يناير ، فإن الإنسان يكون قد ظهر على سطح الأرض في
الدقيقة ١١ ، ٥٧ مساء من ليلة ٣١ ديسمبر !

إنها فضيحة كونية فلكية للإنسان . . فليس هو المقصود من هذا
الكون . . وليس هو مركز الكون ولا هو سيد الأكوان . . وإنما واحد من

الحيوانات العاقلة التى سكنت الأرض . . ونحن لا نعرف إن كانت هناك حضارات قبلنا على الأرض . . ولا نعرف أيضًا إن كان هذا الكون الذى عمره ١٦ ألف مليون سنة هو الكون الوحيد . . أو إن الله خلق أكوانا وأفناها ثم أنشأ غيرها . . فلا أنا سيد الكون ولا الأرض مركز الكون . . لا هذا الكون هو الكون الوحيد الذى خلقه الله . . ثم إن هذا الإنسان الذى يولد ويموت ويخترع كل يوم شيئًا جديدًا ، لم يجد علاجًا للانفلونزا . . ولم يعرف بعد سر الخلية الصغيرة التى يتكون منها النبات والحيوان والإنسان . . ولا هو قادر على أن يطيل عمره وأن يمنع عنه الموت . .

إلى هذه الدرجة قد تجرد الإنسان من كل أزيائه الكاذبة وعظمته الرومية . . ووقف عاريًا أمام نفسه : إنه عاقل عاجز ويقوم بتعويض هذا العجز بادعاء السعادة والأستاذية والخلود !

* * *

وظهرت نظريات تقول إن الإنسان أصله قرد . . لأنه شديد الشبه بالقرد . .

ولكن هناك حلقة مفقودة - هذه الحلقة هى فترة تطور القرد إلى إنسان . . هذه الحلقة هى التى لا نعرف كيف تهتدى إليها . .

وجاءت نظريات تؤكد أن القرد وإن كان شبيهًا بالإنسان إلا أنها ليسا من أصل واحد . .

أى إن النظرية تقول إن الإنسان ليس سيد الكائنات . . وإنما هو واحد من الحيوانات قد تطور . .

ثم إن الحياة ممكنة على كواكب أخرى فى هذه المجرة التى يعيش فيها .

وفى هذه المجرة ألوف ملايين ملايين الكواكب مثل الأرض . . وليس

بعيدًا عن العقل أن تكون بها كائنات أعقل أو في مثل عقلنا . ولكننا لا نعرف . .



وظهرت الماركسية التى ترى الإنسان حيوانا عاقلا . . حيوانا مثل كل الحيوانات الأخرى . . وعقله مثل أنياب وأظافر الحيوانات الأخرى . وهو يستخدم أظافره العقلية وأنياه فى الحياة الاقتصادية والمسيطرة على أدوات الإنتاج والإنتاج . .

فليس هناك عقل ولا نفس . . وإنما الإنسان جهاز به عمليات كيميائية لا تتوقف . ومن هذه التفاعلات الكيميائية يكون النشاط الفكرى والفنى . . ويجب أن نحشد الناس تمامًا كأنهم قطع . . وأن نضع لهم أنيابًا وأظافر ليدافعوا عن الرغيف وعن مكانهم فى المجتمع وفى الدنيا أيضًا . .

حيوانات نحن ؟ نعم . وأقل من ذلك . .

أما الدول غير الشيوعية فهى تنصب على الناس وتخدعهم بأن تقدم لهم المخدرات . . أى الدين . . فالدين أفيون الشعوب . والغرض من الدين هو حماية أموال وثروات الأغنياء . وفى نفس الوقت هناك وعد قاطع بتعويض الفقراء عن جوعهم يوم القيامة . . وكل ذلك أكاذيب . اخترعتها الرأسمالية والإقطاع معا لتسخير الناس وحشدهم للدفاع عن الأغنياء . .

ولذلك فالشيوعية تجرد الناس من هذا الأفيون وتأخذ من الأغنياء اللصوص - فكل الأغنياء لصوص - وتعطى أموالهم للفقراء . . بل وتلغى حق أى إنسان فى أن يملك . . فالكل أمام القانون فقراء . . طبقة واحدة من الجوعى الأذلاء العراة . .

وسقطت الشيوعية ، وأحس الناس أنهم مغفلون . .

وقبل أن تسقط الشيوعية شعرنا نحن في الدول الأخرى أن الإنسان هو مزيج من العظمة والمعرفة . . وأنه يموت جوعاً ولا يمد يده ، وأنه من أجل الكرامة يدفع أى ثمن . . وأهون ثمن يدفعه هو حياته - كنا نقول ذلك لأنفسنا ولغيرنا . ولكن عندما جاءت الشيوعية شعر الغرب كله والعالم الغربى ، بأن الشيوعية فضحت الإنسان . . فقد هدمت مشاعره . . وإيمانه بكرامة الإنسان وعظمة الإنسان . . ففى الدول الشيوعية مئات الملايين يعيشون بلا كرامة ولا عظمة . .

فليس الإنسان دائماً ومهما كانت الظروف مزججاً من العبقرية والكرامة والكبرياء؟

إنها فضيحة لنا جميعاً شرقاً وغرباً !!



ثم جاءت مدارس التحليل النفسى تؤكد لنا أننا حيوانات من الداخل والخارج . . والإنسان للإنسان ذئب وكلب وحمار . .

فالذى فعلته مدارس التحليل النفسى أنها كشفت أعماق الإنسان . . فإذا هى مظلمة . . وإذا الإنسان شرس متوحش لا رحمة معه ولا رحمة عنده . . وإن التعليم والثقافة والحضارة كلها ليست إلا تعليماً وتهذيباً لأظافر ومخالب الإنسان . . وتركيباً للفرامل على كل مشاعره . .

وفى الدنيا يقتل الابن أباه ، والأم ابنها . . وتقوم المجازر دفاعاً عن المذهب وعن الدين . . وتقوم الحروب بين الشعوب التى تستخدم أعظم ما وصل إليه الإنسان من علم فى تحقيق أحط مشاعر الإنسان وأحق رغباته .

والناس فى الحروب كالسكير الذى يدخل البار . . إنه بكامل قواه

العقلية ذهب لكى يفقدها ويقع فى الأرض ويتمرغ ويقول : أنا مبسوط كده !

وفى الحروب يستخدم الإنسان كل أدوات القتال . . أحدثها وأكثرها تطوراً وقدرة على التدمير . . ويتباهى بذلك . . ثم يحارب ويقتل الألوف ويموت منه الألوف . . وفى نفس الدقيقة تدق الطبول والموسيقى تغنى بالحرب المقدسة دفاعاً عن الأرض المقدسة . . وإن هذه هى إرادة الشعوب التى هى إرادة الله . . أى إن القتل كان باسم الله . . والموت هنا وهناك دفاع عن شريعة الله . . وهكذا ترى أن القاتل شهيد والقتيل أيضاً . . وكلها تفضح وحشية الإنسان ، مهما كانت عقيدته ومهما كانت طوبوله ومهما كان سلاحه . .

* * *

وفى حياتنا اليومية أحداث صغيرة . . ولأنها صغيرة فإننا لا نلتفت إليها . وبذلك لا نستخرج معانيها العميقة . أى التى فى أعماقنا ثم خرجت ليكون خروجها قاضحاً لنا . .

تقول الأدبية الوجودية سيمون دى بوفوار إن الشعب الفرنسى قد فضح نفسه عندما أحب برجيت باردو وجعلها ملكة للإغراء والفتنة . . فالذى ينظر إلى هذه الفاتنة يجدها طفلة . . عينها وشفتاها ودلعها . . كلها تؤكد طفولتها . ومعنى ذلك أن الشعب الفرنسى قد أحب طفلاً . ولم يجب أننى ناضجة . لقد أكد ذلك فساد ذوق الفرنسيين وشذوذهم أيضاً ! لقد فضحوا أنفسهم . . أكدوا لنا دون أن يدروا بأنهم شواذ . . وأنهم مرضى ! .

وقالت أيضاً : إن شباب فرنسا قد فضح نفسه مرة أخرى عندما وقف طوابير بالألوف يتفرج على تابوت توت عنخ آمون . ذلك الملك الطفل . والذى لا قيمة له فى تاريخ بلاده . وإنما هو صاحب المقبرة الوحيدة التى

اكتشفوها سليمة . فالمقبرة هى التى وهبته الشهرة والحياة . . والشباب
الفرنسى وقف مفتونًا بما يرى . . لماذا ؟ لأن الشباب الفرنسى يتفرج
على نفسه ، فالملك توت طفل . . وهو صاحب التابوت الوحيد الذى لم
يجد فيه الباحثون عضو الذكر . . بينما كل التوابيت الفرعونية قد بقى
لأصحابها هذا العضو . . إلا توت عتخ آمون . . فهو نموذج للعجز
الذى عند الشباب الفرنسى . وكان حب الشبان للملك توت ، هو حبهم
لأنفسهم . . وكشف لهم . . لحقيقتهم الجسمية والنفسية !



وأشهر فضيحتين فى الأدبين القديم والحديث فضيحة لوكرشيا والتى
اتخذها الأدباء والشعراء والرسامون موضوعًا لهم . . ومن أحسن الذين
تناولوا فضيحة لوكرشيا الأديب الفرنسى جان جيرودو عميد المسرح
الفرنسى . فكتب مسرحية بعنوان (من أجل لوكرس) . وقد ترجمتها أنا إلى
العربية بعنوان : (من أجل سواد عينيها) . .

ثم فضيحة أفستاسيا فى مسرحية للأديب السويسرى ديرنات بعنوان
(زيارة السيدة العجوز) . . وقد ترجمتها أيضًا إلى العربية وبنفس الاسم .
وقد ظهرت على الشاشة بعنوان (الزيارة) . .

أما لوكرشيا فتقول الأساطير القديمة إنها كانت سيدة فاضلة . وإنها
كانت حديث المدينة كلها . . وكان زوجها كوتيلوس فى إحدى الحانات
يهاى أصدقاءه بجمال وفضيلة زوجته . . وفى نفس الوقت يتحدى
الأصدقاء أن يجد الواحد منهم زوجته الآن فى وضع محترم . . وتضايق
الأصدقاء . . وذهب كل واحد إلى بيته ليجد امرأته فى حضن رجل آخر . .
إلا لوكرشيا فقد كانت ترتب فراشها وتطهو طعامها . . وقد تضايق أحد
الأمراء من ذلك . وقرر أن يمرغ لوكرشيا فى الوحل . . فهى
جيلة وهى فاضلة وهى مصدر غيظ وضيق لكل الزوجات . فذهب إليها

وفى يده خنجر . وهددها . وهدد حياتها إذا لم تستسلم له فسوف يقتل خادمها الزنجى ويقتلها ويلقى به فوقها . . ويقول للناس إنها كانت تخون زوجها ، وإنه لذلك قتلها . فاستسلمت له . وذهبت لوكريشيا إلى زوجها وطلبت إليه أن يدعو أربعة من أصدقائه . واعترفت لهم بما حدث . وإنها لا تستطيع أن تعيش لحظة واحدة بعد هذا الاغتصاب . وإنها تريد أن يظل اسمها رمزاً للشرف . . ثم انتحرت . ونهض زوجها وأخرج السيف من بطنها وقرر الانتقام . .

وفى مسرحية جان جيروودو تتفق جميع الزوجات على قضاء يوم خارج المدينة . . وذهب كل الأزواج وكل الزوجات . . إلا لوكريشيا التى تترفع عن مشاركة هذه الزوجات المنحلات ولكن الزوجات دبرن لها كارثة . . فقد بعثن برجل إليها فى البيت . . وأخبرن زوجها بأن يدرك زوجته التى تخونه . . وذهب ووجد هذا الرجل . .

وكان الهدف أن تصبح لوكريشيا منحلة سافلة كبقية النساء . . ولم تنجح المكيدة . . فلم تنحط امرأة ، وإنما انحطت مدينة كلها لم تستطع أن ترقى إلى مستوى لوكريشيا . . الرجال عاجزون عن تقويم النساء . . والنساء لم يفضحن واحدة منهن ، وإنما فضحن كل النساء وكل الرجال !

أما فضيحة انستاسيا بطلة (زيارة السيدة العجوز) . . فقد كانت تحب رجلاً . والرجل فى إحدى القرى والقرية فقيرة جداً . وهى غنية جداً . وجاءت تتقم . . كانت أتويساتها محملة بالبضائع والطعام وأشبع الشعب وأسعدته . . ثم تقدمت بمطالبتها وهى إعدام الرجل الذى خانها وهجرها وحطم قلبها . . وإلا منعت عنهم المال والطعام . . وراحت القرية تحفر قبراً للرجل ، والناس ذهاباً وإياباً يشاهدون القبر . . بل إن الرجل الذى جاءت تتقم منه قد شاهد أهل بلده يحفرون له قبراً . .

إنها امرأة جبارة جاءت تنتقم مستخدمة ضعف الناس وعجزهم
وحاجتهم إلى الطعام أكثر من تظاهريهم بالرحمة والشفقة والكبرياء . .
فالمرأة العجوز لم تفضح شخصاً واحداً . . وإنما فضحت مدينة
كاملة . . فضحت ضعفها وعجزها . . وجعلت الناس يتوارون خجلاً من
أنفسهم : إذ كيف يحفرون قبراً لرجل ما يزال حياً ، ولأن امرأة جاءت
تصفى حسابها العاطفى معه . . كيف يفعلون ذلك دون خجل ؟
والجواب : الرغبة أقوى . .



إنها الفضيحة : إنه الشعور بالعار والعري . . فى مرآتك أنت أو مرآة
الشعب . . أو مرآة كل الشعوب . .
إنه شعور بالخجل والعجز لحظة . . أو ملايين اللحظات . .
ولكن الإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على أن يقع فى الفضيحة . .
وأن يتجاوزها . . ليقع فى واحدة أخرى ويتجاوزها بعد أن يكون قد عبر
عنها واتخذها عبرة . . ولكن الإنسان ينسى . . ولا يثبت على حال . .
قال الشاعر القديم :

وما سمي الإنسان إلا لنسيه
وما سمي القلب إلا أنه يتقلب

فإنسان ينسى . . وقلبه يتقلب وعقله يبحث عن الغطاء ، وكما صنع
الغطاء فإنه يسقطه . . ليضع غيره وهكذا .
فمن فضيحة آدم وحواء فى الجنة إلى فضيحة أمريكا وروسيا فى حرب
النجوم !!

فقد كنا نظن أن سفن الفضاء والكواكب الأخرى والتسابق عليها . .

إنها هو من أجل البحث عن مكان أهدأ وكوكب أجمل . . سمووا بالإنسان
وعلوا بمشاعره ، وحرصًا على الحياة الأهدأ والأجمل على أرض غير هذه
الأرض . .

وفجأة اكتشفنا أننا فقط إنها نغير مواقع القتال وينفس الأسلحة ولنفس
الأهداف !

إنها فضيحة على أعلى المستويات الفلكية !

أنليس فنلور

يناير سنة ١٩٩٤

ذلك النوع من النساء: لا تحب أن تكرهها ولا تكره أن تحبها؟

لا يزال الإنسان يحطم الأصنام . . ولكنه قبل أن يحطمها فإنه يصنعها .
ويجعلها صورة لمستقبله وأملا لأحلامه البعيدة . .

هل هي غريزة الإيمان عند الإنسان ا هل هي غريزة التدمير ؟

هل هو الشعور بالندم والذنب الذى لم يفارق الإنسان منذ هبط من
الجنة إلى الأرض ؟ هل هو حرص الإنسان على أن يظل نادماً ، ولكنه فى
نفس الوقت لا يكف عن ارتكاب هذه الجريمة ؟

لقد استطاعت السينما بقدراتها الفريدة على التجسيد والتلوين والإثارة
والإقناع أن تخلق للإنسان نجومًا جميلة من الرجال والنساء . . فجعلت
أحلام الناس قريبة وحياتهم فى متناول أيديهم . . فالتفت قلوب الناس
حول نجوم السينما ودارت أحلامهم وداخت وراءها . وإذا لم يستطع
الناس أن يحققوا هذه الأحلام ، فهم يرونها . . وإذا لم يروها فهم
يتوهمونها . . وهكذا استطاعت السينما أن تجعل الأحلام والأوهام والواقع
شيئًا واحدًا .

ولا نهاية لنجوم السينما الذين ارتفعوا إلى السماء ، ثم بسرعة حفرنا لهم أماكن في الطين وبلا رحمة ، ومنى ؟ بالضبط عندما نغلق قبورهم عليهم .. أى عندما يصبح هؤلاء النجوم ، عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم ..

مثلا : أرول فلين قالوا : إنه جاسوس نازى خائن لبلاده ..

تايرون باور قالوا : شاذ ..

المطرب بينج كروسي : أدمن شيئين في الدنيا : المخدرات وتعذيب أولاده !

مارلين مونرو : كانت قطعة من اللحم الوردى تحترق على نيران هادقة حتى اغتالتها المخابرات الأمريكية .

جوان كروفورد : سفاحة !! والمال بلا قلب وأخيراً بلا عقل ..

شارلى شابلن : نجم الكوميديا كان من أخط الناس خلقا وسلوكا ؟!

ألفيس برسلى : نجم الروك - آند رول - عاش على المخدرات ومات بها .

ومثل ذلك يقال أيضاً عن نجوم السينما المصرية .. ولكن الحياء يمنع المصريين من أن يقولوا كل الحقيقة .. وتمشياً مع هذه التقاليد المحترمة فإننى أمسك عن ذكر قصة واحدة عن النابيين الذين أسعدونا عشرات السنين .

أرول فلين مات سنة ١٩٥٩ وظهرت كتب كثيرة تهدم هذا المثل الرفيع للرجولة الجميلة القوية .. كان مدمناً ، وكانت له علاقات بأنواع منحطة من البشر .

ولم يكن المخرجون والمتعجبون يعرفون لماذا يجرىء « أرول فلين » مرحاً في الصباح .. وبعد ساعة أو ساعتين يتحول إلى إنسان آخر كتيب بليد ..

ويدعى أنه مرهق . . وأنه في حاجة إلى أن ينام بعض الوقت . فيدخلونه في غرفة ويغلقونها عليه لعله ينام بعض الوقت . . ويخرج من الغرفة بعد ساعة كأنه ولد من جديد . . وكانوا يسمونه نجم النوم السعيد . . والحقيقة أنه لم يكن النوم ، وإنما هي « وجبة » الإدمان القاتل التي جاء موعدها . وكان لابد أن يتعاطاها !

وكان له رأى في اليهود وفي احتكارهم لصناعة السينما ، وتآمرهم على الأديان وعلى الشعب الأمريكي بصفة خاصة . . فظهرت كتب تتهمه بأنه جاسوس نازي وأنه خائن لبلاده !



ولما مات « تايرون باور » سنة ١٩٥٠ حزنّت عليه نساء الدنيا : على جماله وشبابه ونظراته ولفطاته . وارْتدّين الحداد على أيام الحب والدلال مع نجمات الإغراء في السينما العالمية : جودى جارلاند وماى زرتلبنج وانيتا اكبرج ولانا ترنر .

ولم تكن هذه الوحوش الجميلة تعرف الكثير عن الجانب الآخر من حياته .

وتايرون باور لم يشأ أن يذهب إلى قبره كاذبا خادعا ، فكتب وصيته بمليون دولار لثلاثة من الشبان . ولما سأله المحامى عن السبب في أنه أوصى لهم بهذه الأموال والعقارات كان الجواب واحداً : كنا أصدقاء .

أما « جين مانسفيلد » فهي الفتنة نفسها . . إنها أجمل جيلات الشاشة الأمريكية في كل العصور . فبعض النقاد يرونها أجمل من مارلين مونرو . . واختبارات الذكاء تؤكد أن الأرقام التي حصلت عليها تجعلها من طبقة عبقرية . . فهي في غاية الذكاء وحاضرة البديهة والنكتة . وأقوى امرأة أثرا على كل الرجال من أى نوع . وهي صاحبة العبارة الشهيرة : لا يوجد رجل

أقوى من إصبعي الصغيرة . . قالت ذلك عن الرئيس كنيدي ، فكان لها في اليوم التالي . . عن أخيه إدوارد كنيدي وجعلته يزحف على ركبتيه يأتي لها بحذائها بين أسنانه . .

وقد بدأت قضائى « جين مانسفيلد » عندما أعلنت ابتها جين مارى « ٢٨ سنة » أنها تؤلف كتابًا عن أمها . . ففى الكتاب أن أمها تتعاطى كميات كبيرة من المخدرات وأنها تبدل الرجال كما تبدل أحذيتها . وأنها انحنى عند قدمى « ألفيس بريسلى » لكى يغنى لها عجنا فى فيلمها « البنت لا تقاومه » .

وكانت ترغب ابتها أن ترتدى ملابس الأطفال وتزحف على الأرض وهى تقول لها : أنت طفلة . ويجب أن تظلى طفلة !

وكانت « جين مانسفيلد » لا تحب أن تظهر مع ابتها فى أى مكان حتى لا يعرف الناس منها ! .

وكانت تؤمن بالفضيحة كأرخص وسيلة للدعاية . . ولذلك كانت تقوم بالأعمال الغريبة . . وكانت تستدرج مصورى الصحف لكى يلتقطوا لها الصور التى يتحدث عنها الناس . .

ابتها وصفتها بأنها : سفاحة الرجال ، مصاصة دماء البشر ، لم تحب إلا اثنين : الرجل والدولار !

وعندما ماتت ذهبت ابتها ووضعت هذه العبارة على قبرها :

أنت لا تحب أن تكرهها ولا تكره أن تحبها !!

* * *

شارلى شابلن : الفنان الأديب الفيلسوف المخرج السياسى واحد من العظماء الذين ولدوا فى سنة ١٨٨٩ - مع الأدباء العقاد وطه حسين وعبد الرحمن الراغى والمازنى وإيليا أبو ماضى وميخائيل نعيمة وكوكتو

والفلاسفة هيدجر ومارسيل وفتجنشتين والساسة هتلر ونهرو وكريس .
كان هو الآخر يتعاطى المنبهات والمقويات . ولما نشرت إحدى شركات
الأدوية أنها تصنع فيتامينات خاصة لشارلى شابلن مكونة من رحيق
الملوكات وبعض أعشاب الجنزنج الكورية والشاي الأخضر وخلاصة
كبد الحوت وعصير الدوم السوداني ، ثار شارلى شابلن ورفع أمره
للقضاء الفرنسى ، واعتبر هذا تشهيراً به وفضحاً لخصوصياته ، وطالب
بعشرين مليون دولار تعويضاً عن هذه الإهانة . وحكم له القضاء بمليون
دولار !

والحقيقة أنه كان يتعاطى المنبهات والمنشطات والمقويات . . وبعد وفاة
شارلى شابلن ظهر رجل من الهند كان يتولى التدليك والتنشيط بالحبوب
والمراهم والحقن لشارلى شابلن . .

وظهرت له عشيقات فى العشرينيات وفى السبعينيات . . وكانت
عشيقات السبعينيات ينفقن على عشيقات العشرينيات . وجاء فى خطاب
بعث به « شارلى شابلن » إلى عشيقة عجوز : سيدتى . . لقد كنت كريمة
معى . . وتحملت نزواتى فى صبر . . ولولا كرمك ما استطعت أن أحفظ
بكل تلك الجميلات الصغيرات . فهداياك كلها فى أعناقهن وأصابعهن .
دام لى كرمك وتسامحك . . وسوف أظل عظيم الاحترام والامتنان لك !

أى إنها هى التى كانت تنفق الأموال والهدايا التى يقدحها على
العشيقات الصغيرات !

بعض أصدقاء شارلى شابلن وصديقاته فضحوا العلاقات السرية التى
كانت بينهم . .

ولما حاولت إحدى العشيقات الصغيرات أن تروى مغامرات شارلى
شابلن معها ، التف حولها عدد من المحامين . واشتروا منها مذكراتها .
وتعهدت ألا تكتب سطرًا واحدًا عن هذا الفنان العظيم !

أما « هيدى لامار » ، تلك النمساوية الجميلة التي ظهرت أفعى ساحرة في فيلم « شمشون ودليلة » فقد كانت تمرغت على الأموال وفي دم الرجال . وتطير الرصاص حولها طمعا فيها . ولأنها عرفت الكثير من الرجال لم تعد تطيق النظر إليهم . وإنهارت عصبيًا وجسميًا . . . وابتعد عنها كل العشاق . . . ودخلت وخرجت من المستشفيات العصبية . وانجذبت إلى عشاقها القدامى فأنكروها . ولكن أحد الناشرين هداها إلى فكرة شيطانية ، وهى أن تكتب مذكراتها مع كل أصدقائها . ولكن قبل أن تنشر هذه المذكرات تتصل بهم وتسأل : كم تدفع حتى لا أذكر اسمك في مذكراتى ؟

وجمعت مبلغًا كبيرًا من المال ، ثم كتبت مذكراتها وأشارت إلى أسماء عشاقها بالحروف الأولى . . .



وكذلك « ريتا هيوارث » أجمل وأرشق نجوم السينما الأمريكية التي أحبها الناس في كل أفلامها ورقصاتها : جيلدا وغراميات كارمن . . . والتي تزوجها الأمير أغاخان وانجبت منه ابنتها ياسمين . . . هى الأخرى انجذبت إلى الشراب فأدمنت وأسرفت . . . ثم انجذبت إلى الإدمان . . . وكانت لها مشكلة فنية منطقية : إنها عاشت نجمة على الشاشة . . . والناس ينظرون إليها على أنها كذلك . . . وفجأة لم تعد تظهر على الشاشة ، ولا تنسى أنها كانت نجمة . . . ولكن الناس قد نسوها . . . وحاولت بالمخدرات أن تحتاز هذه الفجوة من ماضيها الفنى الذهبى ، ومن حاضرها التعيس . . . فلم يبق إلا أن تعيش ماضيها . . . فكانت تقيم كل ليلة حفلة في بيتها وترتدى ملابس فيلم من الأفلام . . . وتقوم بنفس أدوارها وترغم ضيوفها أو زبائنهم على أن يقوموا بالأدوار الأخرى . ولم يعد أحد قادرًا على احتفال هذا الجنون . . . فتركوها وحدها . . . وأدخلها

الأصدقاء مستشفيات الأمراض العقلية . . واستراحت بالجنون التام واستراحوا أيضًا !

* * *

أما « جوان كروفورد » فقد فضحتها ابنتها في كتاب بعنوان « ماما العزيزة » في ٨٠٠ صفحة . . لم تكن ابنتها ، وإنما واحدة من أربعة أطفال تبنتهم جوان كروفورد . ماتت « جوان كروفورد » عن سبعين عامًا سنة ١٩٧٧ . أما ابنتها هذه فقد تبنتها سنة ١٩٤٠ . وفي هذا الكتاب روت حكايات عن التعذيب والضرب بالكرياج ومسح البلاط وإحراق الأصابع في النار . . وعودة الأم آخر الليل ضائعة وتخطيم كل ما تقع عليه يدها . .

وحكت ابنتها « كريستينا » هذه أن أخاها كريستوفر هرب من البيت عامًا ، بسبب تعذيب أمه له . .

وتزوجت « جوان كروفورد » مالك البيبي كولا ألفرد استيل ، وكانت تنتقل معه من مكان إلى مكان تدعو لشراب البيبي ، وفي يوم تقدمت كريستينا إلى زوج أمها وعانقته . . فها كان من الأم إلا أن نادى ابنتها وانفردت بها في إحدى الغرف وضربتها بمتهى القسوة وهي تقول : هذا رجلى أنا ، اذهبي وهات لك رجلا !

أما ابنها كريستوفر فيقول إنها كانت تطلب إليه أن يمسح البلاط وهو في الخامسة من عمره . فإذا لم ينجز ما طلبته منه بسرعة انهالت عليه ضربا بالكرياج !

وكان من عاداتها أيضًا أن تدعو إلى بيتها الرجال بغير زوجاتهم . .

ولما توفيت فتحوا وصيتها فوجدوا أنها أوصت لابنتها التوءمين ، ولم توص بشيء لكريستينا وكريستوفر . وقالت في وصيتها : إنهم جميعا أبنائى

تبنيتهم . ولكن لا أوصى لكريستينا وكريستوفر بشيء . إنها يعرفان الأسباب !

أما الأسباب فقد عرفنا أنها كانوا يشكوانها للأصدقاء والجيران . وأنها قاما بفضيحتها في حياتها . . وكذلك بعد وفاتها !

وكانت نشأة جوان كروفورد في غاية المرارة . فهي ابنة غير شرعية . وكانت أمها قاسية عليها وكذلك أبوها . . أو الآباء الذين قيل لها إنهم من المحتمل أن يكونوا آباءها . . أى واحد منهم . . أو هم جميعاً . وظلت جوان كروفورد تعتقد حتى الخامسة عشرة من عمرها أنه من الممكن أن يكون للطفل أكثر من أب . .

ولكن المثلة الإنجليزية « فيفان لى » بنت الأكابر الأثرياء المحترمين زوجة أعظم ممثل في العالم لورد أوليفيه ، ما الذى دفعها إلى هذا الانحراف وقد نشأت في أسرة متوازنة لا محرومة من الحب ولا المال ولا التربية ؟

وقد بهرت العالم بدورها في فيلم « ذهب مع الريح » كانت تقوم بدور سكارلت أوهارا . . وقفزت من قمة إلى قمة في السينما والمسرح .

ولكن بعد وفاتها عرفنا حياتها المأساوية . . قد أدمنت الشراب والمخدرات ، وكانت المعارك دامية بينها وبين زوجها . وكان صوتاهما مسموعين عند الجيران وكذلك الأشياء الكثيرة التى يحطمانها عند منتصف الليل . . لقد أصابها نوع من القرف والملل . . التمرد على حياتها . . فكانت تكره كل شيء نظيف . . كل شيء يلمع . . ولذلك كانت إذا دخلت البيت وضعت يديها في آنية الطعام . . ثم ألقت بالطعام على ملابسها وعلى الأرض .

واعترف زوجها لورانس أوليفيه أنه في إحدى الليالى كاد يقتلها . فقد ألقي بها على الأرض وكاد رأسها يوتطم بالسريير . ولو حدث لماتت .

وكانت فى ذلك الوقت تعاني من انهيارات عصوية وكان زوجها يخشى
الفضيحة إن هو أدخلها أحد المستشفيات . وفى نوبات الغضب كان
يربطها بالحبال ويسد فمها بفرطة مبللة .

أما نجمة الإثارة فى بداية السينما الناطقة فهى « جين هارلو » التى
توفيت فى سنة ١٩٣٧ . هربت من المدرسة فى سن الخامسة عشرة .
وتزوجت فى سن الحادية والعشرين . واستمر الزواج ليلة واحدة . عندما
جاءت أسرة العريس وأرغمته على الطلاق من هذه الفتاة المنحلة !

وتزوجت كثيرين . . وبعد ذلك تزوجت منتجاً سينمائياً . وبعد ثلاث
ليال من الزواج أطلق على نفسه الرصاص . وترك خطاباً يقول فيه : إنها
وعدته بتشجيعه على أن يكون زوجاً قادراً . ولكنها لم تستطع أن تتشله من
عجزه الجنسي فقتل نفسه !

وكان هذا الرجل يضربها بالعصا . وكانت العصا تتحطم على ظهرها
وساقها وصدرها . . ثم يلقى بمئات ألوف الدولارات عند قدميها . .
ويطلب إليها أن تجمعها حينما ينهال عليها بالعصا !

وقد أدى هذا الضرب إلى إصابتها فى كبدها . . وهذه الإصابة ظلت
توجعها حتى ماتت بالتهاب فى المثانة ثم انسداد تام لها . .

وتزوجت الممثل « وليام باول » وكان زواجاً عاصفاً فاشلاً .

وفى جنازتها الطويلة الصامتة الحزينة راح المطرب نلسون أدى يغنى
بصوته الجميل : يا لغير هذه الحياة الجميلة . .

فانهار ثلاثة من الرجال فى أول وآخر الجنازة . وعرفنا فيما بعد أنهم كانوا
عشاقها !



وأحب الناس المطرب « بنج كروسبى » فصوته هو الحب الحقيقى .

وهو الشوق والهيام واللوعة . . كل كلمة . كل نبرة هي شعلة من النار
المهتدة للقلوب الجريحة .

ولكن أحد أبنائه كتب قصة حياته . . وقال إن والده كان يضربه
بمتهوى القسوة . وكان يضربه بحزام من الجلد . فقد كان بنج كروسي
بخيلاً جداً . وكان يطلب إلى أولاده أن يغسلوا ملابسهم وأن يخلعوا
ملابسهم إذا دخلوا البيت حتى لا تبلى . .

وفي يوم فوجئ بأن واحداً من أولاده قد ارتدى بدلة لم يشتريها هو . .
فضربه واتهمه بأنه سرق أمواله واشترى هذه البدلة . ولم يعط الابن فرصة
لكي يقول له : إنها هدية من إحدى شركات الملابس . . وإن هذه الهدية
تلقاها باعتباره ابناً لبنج كروسي . . فكأنه هو الذي اشتراها له . .
واتصل الأب بالشركة يسأل إن كانت هذه البدلة هدية . . فتأكد له
ذلك !

واعترف الابن بأن والده لا يدعو أحداً إلى بيته ، حتى لا يرى الناس
بيته المتواضع القذر . وحتى لا يجدوا آثار الضرب على وجوه أولاده . .
وحتى لا تكون فضيحة !

وكان بنج كروسي يطلب إلى حماته أن تعاقب أولاده بأن تحاسبهم يوماً
من كل أسبوع . . وأن تضربهم مرة في الأسبوع .

* * *

ولم يحترم العالم كله نجمة مثل جريس كيل أميرة موناكو التي ماتت في
حادث سيارة تقودها ابنتها . . فقد استطاعت جريس كيل أن تظل محترمة
لأنها كانت تملك عدداً من المجلات العالمية التي تفرغت لصورها وحياتها
وأسرتها وأولادها . .

ولكن جريس كيل أخفت علاقتها بكلاك جابل . . وعلاقتها

الصارخة مع الممثل راي ميلاند . . وكيف أن زوجة هذا الممثل هددته بالطلاق إن هو لم يترك جريس كيل .

وفي أحد الكتب التى ظهرت بعد وفاة أميرة موناكو أنها كانت عاشقة مهذبة . . فقد كانت لها علاقات منظمة وسرية . ولم يفلح أحد أن يلاحظ شيئاً من كل ذلك . . فقد كانت تقوم بواجباتها الزوجية وواجباتها الاجتماعية ودورها كسيده أولى للإمارة . .

وحتى الآن لم تظهر لها صور . . وإن كانت قد ظهرت لها حكايات . . ماتت فور صدورها لأن أحداً ليس لديه أدنى استعداد لتصديقها !

* * *

فكان ملايين المشاهدين يعرفون مقدماً أن هؤلاء الذين يحبونهم على الشاشة يخفون وراءهم قصصاً بشعة . . فكان المشاهدين والممثلين قد اتفقوا على شيء واحد : وإن هذا الذى يرون كذب فى كذب . . ولكنه كذب جميل . .

فالمشاهد لا يصدق ما يرى . . ولكنه يعيش ساعات جميلة مزيفة . .

والممثل يعيش أيضاً هذه الساعات الكاذبة ، فالكلام من صنع أحد المؤلفين ، والحركات من صنع أحد المخرجين وبقية الألوان من صنع الحلاقين . . فهى حكاية فنية كاذبة ، ولكنها جميلة . . وبعد ذلك يعود الفنان لتكون له حياته الخاصة ، وعنده أمل عظيم ألا يفضحه أحد وهو ما يزال حياً .

وهذه هى الأمنية الوحيدة التى تتحقق لمعظم النجوم ما دام النجم حياً ، ولكن الفضائح تبدأ حين لا يكون قادراً على مواجهة أحد .

عذابها : لذتها ! لذته : عذابها !

وفي السطور الأخيرة من « ألف ليلة وليلة » جاء هذا الختام على لسان «شهر زاد» :

ياملك الزمان ، وفريد العصر والأوان : « إني جاريتك ولى (ألف ليلة وليلة) وأنا أحدثك بحديث السابقين ومواعظ المتقدمين ، فهل لى فى جنابك من طمع حتى أتمنى عليك أمنية » .
فقال لها الملك : تمنى تعطى يا شهر زاد .

فصاحت على الدادات والطواشية وقالت لهم : هاتوا أولادى !
فجاءوا لها بهم مسرعين . وهم ثلاثة أولاد ذكور واحد منهم يمشى وواحد يجبو ، وواحد يرضع ، فلما جاءوا بهم أخذتهم ووضعتهم قدام الملك شهر يار . وقبلت الأرض .

وقالت : ياملك الزمان إن هؤلاء أولادك وقد تمنيت عليك أن تعتقنى من القتل إكراما لهؤلاء الأطفال فإنك إن قتلتنى يصبح هؤلاء الأطفال من غير أم ولا يجدون من يحسن تربيتهم من النساء .

فعند ذلك بكى الملك وضم أولاده إلى صدره وقال : يا شهر زاد والله

الرجل الألماني يقول لزوجته السايلاندية لا تخرجى . فلا تخرجى ! لا تردى على التليفون . لا ترد ! لا تكلمى جارتك . . لا تكلمها ! أريد أن يكون لى عشرة أطفال . فلا تشكو من الحمل والولادة !

وحكى لى د. عبد الفتاح درويش أن جاره قد تزوج من فتاة كورية . جميلة تفوح منها عطور منعشة . ولا يكاد الزوج يفتح الباب حتى تنحنى الزوجة . ثم تسبقه إلى الجلوس عند قدميه تخلع له الجزمة والشراب وتضع ملابسه على الشاعرة . ثم تجلس عند قدميه . . وقد تعلمت اللغة الألمانية بسرعة . . وقد طبخت وأعدت المائدة . . والرجل لا يخفى سعادته بكل ذلك !

ويقول إن له زميلًا يعمل فى إحدى شركات الأدوية . وكان قد تزوج زميلة له . هذه الزميلة جميلة الوجه رائعة القوام . وإذا صافحتك دشدشت أصابعك . منتهى القوة والرجولة أيضًا . ولا يكاد زوجها يصل إلى البيت ويقول لها : هالو . . . حتى ترد عليه : السفرة جاهزة . . وعلى السفرة هو يقرأ كتابا وهى تمسك حاسبها الكترونى وينتهى الطعام ويذهب كل واحد إلى فراشه حيث تكون كتب أو مجلات . أغرب من ذلك أن هناك جدولًا قريبًا من السرير لبرامج الزيارات للأسبوع القادم . فلا هى حياة زوجية ولا عائلة . . . ولا حتى صداقة أو زمالة . . ولا هو يعرف ما الفرق بين الرجل والمرأة . . ولا يرى أى سبب بأن يكون لهما رأى مشترك . . وإنما كل الآراء متصادمة . ولكى ينحسم الخلاف ووجع الدماغ ، فهى مرة تأخذ برأيه ومرة تأخذ برأيها . . وتمضى الحياة بلا متعة ولا عاطفة !

قال لى مهندس نمساوى موجود الآن فى القاهرة مع زوجته الأندونيسية : إننى أخجل كثيرا مما تقول له زوجتى كلما جاءنا ضيوف . فهى لا تكف عن شكرى والامتنان لى ، فقد أنقذتها من الجوع والمرض . وجعلت لها قيمة ونقلتها من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين وإنها

لو قبلت الأرض تحت جزمى ، فهذا أقل مما يجب أن تفعله . . ثم إننى سمعتها تقول لأولادى إن أباكم أعظم رجل فى الدنيا . . وإنه يعطينا كل ما لديه . . وإني أحسن من كل أطفال قارة آسيا . .

وقال لى : لو كانت زوجتى نمساوية مثلى فلن أسمع منها كلمة شكر . . لى أنا ولا تقول حمد الله على أى شىء . . وإذا أخطأت لا تعتذر . . بل إنها كثيراً ما نظرت لى على أننى خدام السيادة . وأننى لا شىء وأنها هى التى جعلت منى شيئاً ولولاها ما كان ما كان . . يعنى بالاختصار أنا إنسان لا أسارى وزنى ترابا ، أما هى فقد حولت التراب لى تربة ، بمجرد أن دفعت فنجان الشورى من جانب من السفرة لى جانب آخر ليكون قريباً منى . . فهذه الحركة التى استخدمت فيها لإحدى أصابعها هى التى نقلتنى من عالم لى عالم . . ومن الأرض لى السماء . . تماماً كاللوحة الشهيرة فى قبة كنيسة القديس بطرس . . ففى اللوحة نرى الله وقد لمس بإصبعه العدم فتحول لى وجود . . فزوجتى هى التى خلقتنى من العدم . كيف ؟ هى التى تقول . بيننا زوجتى الأندونيسية تكاد تعبدنى . . وأرى الصديق والوداعة والأنوثة والأمومة فى عينيها وفى أصابعها . . وعيناها مثل أظافرها مثل بشرتها لامعتان دائماً . وهى معطرة دائماً . . وهى أنثى مائة فى المائة !

وتحاول الحكومات الأوروبية الآن أن توقف الزواج من آسيويات . فأول قرار اتخذته السيدة مرجريت تاتشر هو ألا يحصل أى إنسان على الجنسية البريطانية لمجرد أنه تزوج إنجليزية . لابد أن تمضى خمس سنوات على ذلك . . وفى ألمانيا أيضاً . ولكن المرأة الأوروبية - الألمانية والبريطانية والسويدية - تحاول أن ترضى الرجل بأن تكون أكثر أنوثة وبأن تبقى وقتاً فى البيت وأن يكون عندها أولاد . . ولكن الرجل على يقين من أنها تمثيلية لكى تحتفظ بالرجل بعض الوقت . والرجل الأوروبي أو الأمريكى قد وجد الحل الجاهز المريح : إنه يفضلها صفراء !

وكان عميد المؤرخين أرنولد توينبي قد أعلن أن أهم حوادث القرن العشرين هو إقناع سكوتيرات نيويورك بالعمل في يوم الإجازة !

فقد كانت العادة أن تدفع الشركات أجرًا إضافيًا للمرأة لكي تعمل في يومى السبت والأحد . ولكن المرأة رفضت أن تباع إجازتها بأى ثمن . وكانت المرأة الأمريكية تغيظ أصحاب العمل بأن تذهب يوم الإجازة إلى مكتبها ثم لا تعمل شيئًا !

ورأى توينبي أن قرار المرأة هذا هو أكبر دليل على استقلالها وحريتها ورفضها أن تباع نفسها بأى ثمن . . وأن تكون حرة تمامًا في وقت فراغها . . وإنما ليست للبيع !

من يومها والمرأة تأخذ كل يوم حقا وتضيف إلى نفسها كسبًا . . خارج البيت . ولكنها بنفس الدرجة لم تكسب في داخل البيت ومع زوجها وأولادها . . وتركزت أولادها للخدمات الزوجيات أو الملاجيء أو المستشفيات العصبية . .

وبسرعة زحفت المرأة الآسيوية إلى هذه البيوت المنهارة . . خادمة . . ومربية . . وعشيقة . . ثم زوجة وعلى رأسها ريشة . هذه الريشة وضعتها الرجل الأبيض الأشقر في أوروبا وفي أمريكا ، وليس قبل وقت طويل أن تعدل المرأة الغربية خطوطها وخيوطها وأنوثتها . .

والمعركة قد استؤنفت في بريطانيا وفي أمريكا . .

والرجل يريد حقوقه - لا أكثر !

والمرأة تريد حقوقها - لا أقل !

وسوف نرى . .

أخيرا رأيت الذين هبطوا من السماء!

أول رائد فضاء رأيته هنا في القاهرة جاجارين . . قصير القامة . باسم الوجه . . جندي بسيط لا يعرف بالضبط ما هي المعجزة العلمية التي حققتها بلاده في الفضاء الخارجي هو قال ذلك . . فهو ليس أكثر من سائق تاكسي . . التاكسي في السماء والدريكيون في الأرض يحركه ألوف العلماء . . وهو إنسان ساذج أيضًا لأنه عندما عاد إلى الأرض قال . ولكني لم أجد الله .

هذا الإنسان البسيط تصور أن الله سبحانه وتعالى سوف يكون في انتظاره على ارتفاع ٣٠٠ كيلو متر من سطح الأرض . . وهو لا يعرف أن الكون وراءه مترام إلى مليون × مليون × مليون × مليون مليون ألف مليون × ألف مليون × ألف مليون كيلو متر « آخر إحصائية سوفيتية لاحتمال أن تكون هذه هي أبعاد الفضاء وراءنا أو أمامنا أو تحتنا أو فوقنا!!

وفي القاهرة دعوت أربعة من رواد الفضاء مع د . فاروق الباز إلى العشاء في فندق ميرديان . . أناس مثل كل الناس . . يأكلون الخبز والسلطة

ويتفجرون بشهية مفتوحة جدًا إلى نجوى فؤاد ويرون في النظر إليها شيئًا مختلفًا جدًا عن النظر من السفينة إلى كوكب الأرض .

وفي صباح اليوم التالي وجدت رواد الفضاء يقتسمون طبقا من الأومليت فسألت فاروق الباز : إن كان هذا طعامهم العادي ؟ فضحك ضحكته العالية جدًا وقال : إنه الفقرا !

ولم أفهم فأكد لي أن رواد الفضاء يسافرون على نفقتهم . . ورحلاتهم إلى الفضاء بلا أجر . . إنهم متطوعون . وإذا مات الواحد منهم فليس له تأمين . . والموظف منهم يتقاضى من الدولة « بدل سفر » عن كل ليلة يبيتها خارج الأرض . . تمامًا كأنه انتقل من القاهرة وبات في الإسكندرية .

وكان المرحوم يوسف السباعي وزيرًا للثقافة فأصدر قرارًا باستضافتهم فتعددت الأطباق أمامهم والمشروبات وظهرت البهجة على وجوههم . وعندما عادوا إلى أمريكا سلموا للحكومة كل الساعات الذهبية والماسية التي تلقوها مع فاروق الباز من دول الخليج . فالقانون الأمريكي يمنع الموظف أن يتلقى هدية بأكثر من سبعين دولارًا . وأمريكا تجمع كل هذه الهدايا المرتدة في مزاد علني كل سنة .

ورأيت رائد الفضاء السعودي الأمير سلطان بن سلمان . هو شاب ممشوق القوام أسمر رقيق وفي غاية الأدب . وإذا ضحك فإنه يضحك بكل خلية في وجهه . وإذا صافحك فمن قلبه وإذا عانقك فبكل كيانه . وقال لي : إنه كان يقرأ كتابيَّ عن الفضاء الذين هبطوا من السماء . والذين عادوا إلى السماء . . وإن ما جاء في هذين الكتابين وفي مقالات أخرى قد أشعلت خياله وجعلته يطيل النظر إلى النجوم .

أما الذي لم يكن في خيالي أنا فهو أن أرى خمسين من رواد الفضاء الأمريكيان والروس والألمان والإنجليز في مكان واحد في الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية . . أكثر هؤلاء الرواد قد زاد وزنه وظهرت عليه

ملاحح الحياة الأرضية . الأكراش والترهل وبطء الحركة . . فلم يعد أحد يطلب إليهم أن يحرصوا على الوزن وساعات النوم . وكانت معهم زوجاتهم أكثر رشاقة وأشد حرصًا على الحياة والأناقة وانتشارًا في الأسواق . .

هؤلاء الرواد وغيرهم من العلماء قد حشدتهم الأمير سلطان في الاجتماع السنوى لاتحاد مستكشفي الفضاء لأمر هام . الأمر الهام : السماء للأرض . . السماء في خدمة الأرض . . أو الفضاء ورحلات الفضاء من أجل حياة كوكب الأرض . . حياة النبات والحيوان والإنسان . . أى استخدام كل ما يكتشفه الرواد والعدسات والليزر ليكون في صالح الأرض التى تزداد تلوثًا والحيوان الذى يزداد مرضًا والإنسان الذى يزداد عذابًا .

ثم موضوع هام آخر : ما الذى تفعله الدول من أجل سلامة رواد الفضاء ؟ حتى الآن لم تفعل شيئًا يذكر ، ولذلك اتحد جميع الرواد يطالبون بحقوقهم في الحياة والعودة سالمين إلى الأرض . . فكثير منهم قد مات وقد احترق على الأرض . . وكثير منهم كاد يموت في السماء ، ولكن دولته وكل الدول عاجزة عن أن تقدم له أى عون لأنه في لحظات من الممكن أن يحترق هو وسفينة .

أما ملابس رواد الفضاء فالبدلة الواحدة ثمنها ثلاثة ملايين دولار . . وهى عبارة عن مصنع متحرك للبرودة والحرارة والضغط ومقاومة الأشعة المميتة وهذه البدلة تزن ١٥٠ كيلو جرام . . ولكن سفينة الفضاء نفسها من الممكن أن تحترق أو يتسرب منها الأوكسجين أو عقولها الالكترونية تهذى . . كل شيء من الممكن أن يتلاشى في لحظات . . إن رواد الفضاء يمارسون رياضات عنيفة جدًا ويتولاهم العلماء بالعلاج الكيميائى والإشعاعى حتى يتحول الرائد نفسه إلى جهاز لا رأى له ولا إرادة يقولون له : الآن تستطيع أن تنام فينام . . الآن يجب أن تصحو فيصحو . وهكذا فى الأكل والشرب ودخول دورات المياه . . كلها بالأمر . . فلم تعد

له إرادة . . إنه تحول إلى آلة متحركة وسط أعداد هائلة من الآلات والعيون والبريق فوقه وتحتة . . كثير من الرواد عاد إلى الأرض حيوانًا . . كان يوما ما إنسانا فدائيًا من أجل حياة البشر والحيوان والنبات وسلامة هذا الكوكب .

أكثر رواد الفضاء شهرة وخفة دم هو السوفيتي ليونوف أول إنسان سبح في الفضاء وهو رئيس اتحاد مستكشفي الفضاء الروسى . . وكل شيء فيه دائرى . . عيناه وجفناه وشفتاه ورأسه وكرشه . . وهو خفيف الدم كثير المرح .

أعجبتنى كلمة ليونوف فى افتتاح المؤتمر يقول : إنه فى اليوم الأول للدوران حول الأرض فإن الرائد يكون مشغولا بالبحث عن مدينته . وربما عن بيته . وفى اليوم الثانى يكون مشغولا بالبحث عن بلاده كلها . وفى اليوم الثالث ينشغل بالبحث عن قارته . أما فى اليوم الرابع فإنه يكون مشغولاً بالنظر إلى كوكب الأرض كله . . وبعد ذلك يشعر بأن الأرض جميلة كأننا لن نرى الجمال إلا إذا ارتفعنا . . ثم يشعر الإنسان بحريته المطلقة لأنه ينتقل من دولة إلى دولة ومن قارة إلى قارة بلا حواجز . . بلا جوازات سفر . . ولا جمارك . . ولا حائل قومى أو دينى أو مذهبى . ويصبح هم الإنسان الأكبر هو الأرض وليس بيته ومدينته ودولته وقارته . ثم يشعر الإنسان بأنه عظيم لأنه استطاع بالعلم أن يحقق المعجزات ويشعر بأنه ضئيل جدًا أيضًا فالذى يعرفه قليل ، وكوكبه ليس إلا ذرة فى محيط لا نهائى من الفضاء وما لا نهاية له من الذرات الأخرى المبعثرة فى الكون وفقًا لقوانين ونظم لم نعرفها بعد ! كلمة رائعة يالئونوف .

* * *

أما السير آرثر كلارك المؤلف المعروف ومؤلف قصة حوار وسيناريو الفيلم المعروف « أوريه ٢٠٠٠ » فهو رجل خفيف الدم وأحيانًا يصبح من

الصعب على المستمع أن يعرف ما هي النكتة لأنه يتكلم بسرعة ، ولذلك ونحن نستمتع إليه يجب أن ننظر الأمريكان والإنجليز الذين يسمعونهم فعندما نراهم يضحكون نضحك نحن أيضًا حتى لا يقال إننا لا نفهم .

ألقى محاضرة عن الرياضيات في الكون أو المعادلات الرياضية . سوف أنقل لك عبارة واحدة دليلاً على جوهر المحاضرة ولن أطيل لأنه من الصعب جدًا أن أشرح لك معنى هذه العبارة .

نفرض أن $a = b = 3$ وأن هذه المعادلة قد ضربت في نفسها ما لا نهاية له من المرات وأن العقل الالكتروني جعل لها شكلاً سوف تجد الصورة النهائية جبلاً وأنهاً وحيوانات وحركة لا تتوقف في الكون حولنا !

هل فهمت ؟ ولكنني رأيت صور المعادلات وكيف يرسمها العقل الالكتروني بالألوان وكيف تخرج من هذه الرسوم أشكال لحيوانات وأناس لا أحد يعرف كيف ولا أحد يعرف الشكل النهائي بعد مليون سنة . . فإذا كانت هذه هي حركة المادة في مجال صغير فكيف في الكون ؟ وكيف أصبح هذا الكون من قبل وكيف من بعد !

لا تجهد رأسك . . فإن الأمانة هي التي اقنعتني أن أنقل لك هذه الصورة كما سمعت وما استطعت أن أفهم .

* * *

ولابد أن رؤوسا تددشدشت بسبب اللف والدوران حول رواد الفضاء من قاعة إلى قاعة ومن كلية إلى جامعة في أنحاء المملكة العربية السعودية ولكن لابد أن جميع هذه المحاضرات قد أمتعت وأسعدت المتخصصين ونحن في انتظار أن تجمع في كتاب واحد .

* * *

وجاء الفرج . . لقد تلقيت دعوة شخصية من رائد الفضاء الأمير

سلطان بالعشاء في خيمة في الصحراء مع رواد الفضاء بعيدًا عن كل وسائل الإعلام العربية والعالمية . . فهذه رغبة الرواد ورغبة حكوماتهم أن يكونوا على راحتهم وألا تنشر الصحف صورًا أو حكايات عنهم .

أما الطريق الصحراوي فقد انحرف عن الطرق المرسوفة الواسعة النظيفة المضاءة إلى قلب الصحراء . . لا نعرف إلى أين . . السيارات ضخمة مكيفة تعلو وتهبط فوق الرمال . . والرواد يشعرون كأنهم انتقلوا إلى كوكب آخر غير كوكب الأرض . . فلا توجد أية معالم . . وإنما السيارات توغل في الرمال وتعلو وتهبط والسيارات تزجر ونحن أيضًا . وفجأة توقفت السيارة تمامًا . لقد انغرست عجلائها في الرمال الناعمة وأحس الذين وصلوا إلى السماء في دقائق وإلى القمر في ساعات أنهم غير قادرين على الوصول إلى الخيمة . . إلا سيرًا على الأقدام . . وأحس الرواد كأنهم هبطوا فوق كوكب آخر وليست معهم أية وسيلة للاتصال بكوكبهم الأم لعل أحدًا يجيء لإنقاذهم . . أطباق طائرة أو كائنات آلية .

وبسرعة ظهر القمر في السماء بدرًا . . وبسرعة نزل الذين كانوا فوق التلال يشاهدون الغروب في سماء صافية . . وظهرت الفرق الشعبية تغنى ولا نعرف ماذا تقول باللهجة البدوية ، ولكن الإيقاع رتيب حزين . وحاول الرواد أن يقلدوا الراقصين الشباب . . بعضهم استطاع وأكثرهم افتقد المرونة والليونة التي عند هؤلاء البدو .

وتمددت سيقاننا على الأرض ووجدتني إلى جوار رائد الفضاء ليونوف . سألتني عن التغيرات في الاتحاد السوفيتي وعن جورباتشوف في روسيا وعن جورباتشوف في العالم الشيوعي وعن المقاومة التي يلقيها في بلاده . . وإن كان قد أتى بنظام جديد بعد أن اسقط النظام القديم . . وقال ليونوف . ولكن لم أستاذنه في نشر شيء مما قال :

وجلست إلى جوار زوجة أحد رواد الفضاء إنها بالغة الحيوية ولغتها

الإنجليزية لا تساعدنا كثيرًا على أن نقول ، ولكنها استطاعت أن تقارن بين المرأة العربية والمرأة الروسية والمرأة الأمريكية . . . وعندها قدرة على التقاط الجوانب المضحك من أى شيء ربما كان ذلك هو سر اللامعان في وجهها وعينيها الذى يشغلك عن النظر إلى التجاعيد التى ظهرت حول رقبتها فجعلتها قريبة من سن زوجها الذى أنهى الخمسين عاما .

ووجدنا في الخيمة الكبيرة أكواب لبن الناقة وأطباقًا من التمر . امتدت الأيدي طبعًا وانقطع التيار الكهربى ثم عاد النور وكانت الأيدي كلها قد امتلأت بالتمر كأننا انتهزنا الظلام لنأكل على راحتنا ففضحنا النور! ولما انقطع التيار الكهربى خرجنا جميعًا إلى نور القمر .

وكان السير كلارك يجلس على مقعد مرتفع لأنه لا يستطيع أن يتحرك . فقد كانوا ينقلونه على مقعد ذى عجلات . ولكن عندما حان موعد الرقص البدوى جاء شابان سعوديان يستند عليهما وراح يرقص على الوحدة السعودية . . . والرواد يصفقون له ويلتقطون له الصور .

وفى إصرار تقدم أحد الحراس السعوديين وأمسك كاميرا أحد المترجمين المصريين وسحب منها الفيلم . فالكاميرات والصور للرواد فقط وحتى عندما ذهب يشكو إلى الأمير سلطان لم يشأ أن يعيد له الفيلم فهذه رغبات رواد الفضاء وحكوماتهم .

ثم تعالت الأصوات أن تفضلوا ! وتفضلنا نخوض الرمال في الظلام إلى خيمة أخرى أعدت للطعام . أما الطعام السعودى فمعروف : لحم ولحم ولحم وأرز ولحم وأرز له أسماء مختلفة . فصرخت للأمير سلطان : يا طويل العمر سوف أموت من الجوع !

فقال : لماذا ؟

قلت : لأننى لا أأكل اللحم .

قال : والسلطة ؟ والفاكهة ؟

قلت : آكلها ولكن عند نهاية الطعام الذى لا أجدّه !
وأمام الأمير تربع جمل صغير . . وحول الجمل لابد أنها لحوم الخراف
ولكن على مستويات أدنى . . وجاء من يقطع الجمل بالشوكة والسكين
ولكن أكثر الناس كان يأكل بأياديه رغم وجود الشوك والسكاكين .
هل هذا معقول ؟ لقد رأيت الروس والأمريكان يأكلون بصورة
وحشية . . إنهم يريدون أن يأكلوا من كل شيء . . بل ويأكلون كل شيء
ورأيت الذى يأكل معتمدًا على يده اليسرى يعتدل ويأكل معتمدًا على يده
اليمنى . ومن أوجعته يدها ينكفىء على الأطباق والذى أوجعه ظهره امتلأ
وتمدّد على الأرض .

قلت للأمير سلطان : ياسمو الأمير اقترح حفر أربعين مقبرة على سبيل
الاحتياط . والاتصال بالمستولين فورًا للاتفاق على شكل الجنائز التى تليق
بالمرحومين من الرواد الذين هبطوا سالمين إلى الأرض وهبطوا مقتولين تحت
الأرض !

انعوج الأمير الشاب فقلت له : سوف يموتون من التخمّة . . انظر !

* * *

وفى حديث نشرته صحيفة « الرياض » لوالدة الأميرة سلطان تقول .
إنها أهدت ابنها للوطن . . وإنها لا تعرف شيئًا عن الفضاء . . ولكنها
تعرف أن يكون ابنها شجاعًا وأن يكون وطنيا مخلصًا .
أما إنه شجاع فلا شك فى ذلك . . أما إنه مخلص وعربى أصيل واسع
الأفق فهذا يظهر بوضوح فى إدارته للندوة الدولية .

فقد دعانى الأمير سلطان لأن أشارك فى الندوة الدولية وأن اتوجه بسؤال
أو أكثر لرواد الفضاء على مسمع من الجمهور فى نيويورك وواشنطن
وإتلاتنا . . كلنا جميعا فى شبكة تلفزيونية واحدة نرى بعضنا البعض
ونسلم .

وتوجهت بسؤال إلى رائد الفضاء الأمريكى ورئيس الاتحاد مشو يكارث ورائد الفضاء الروسى ليونوف والكاتب العلمى الكبير سير كلارك قلت . سؤال عن الجانب الخفيف أو المضحك من هذه الصورة . . فنحن حتى الآن لم نقرأ تفسيراً علمياً لهذا الذى ظهر أخيراً فى روسيا . . أناس جاءوا من الفضاء . . أو أطباق طائرة . . ونحن نعرف أن شيئاً أخطر من ذلك قد وقع عند بداية القرن فى روسيا أيضاً . . فقد هبطت إلى الأرض سفينة فضاء احترقت قبل أن تصطدم بالأرض . . فأحرقت نيرانها الغابات والحقول وأضاءت روسيا وأوروبا أياما كاملة - هذا ما يقوله الروس فى كتبهم . . ثم إن عددًا من الرواد الأمريكان قالوا إنهم رأوا أشياء طائرة فى داخل سفن الفضاء وأشياء أخرى وراءها وحولها تطاردها . . ولم نقرأ لا تفسيراً ولا رفضاً علمياً لذلك .

وبسرعة رد رائد الفضاء مشويكارث قائلاً : ليس عندي ما أقوله فأنا قرأت مثلك فى الصحف .

وطلب الأمير سلطان من الراحل ليونوف أن يرد . فكان كلام ليونوف أنه هو الآخر لم يسمع إلا من التلفزيون ومن الصحف . . وإنه يعتقد أن هذه تخاريف أطفال وليس لها أى أسس علمية . . وهى مثل الذى يقال عن الأطباق الطائرة « فرقعات » وهمية ترددها وسائل الإعلام لإثارة الناس . وليس عندنا صورة واحدة واضحة لذلك . . إن هذا كلام فارغ .

ثم اتجه الأمير سلطان إلى السير كلارك الذى شحط ونظر وقال هذا كلام فارغ من الناحية العلمية ويستطيع الإنسان الآن أن يتنبأ باقتراب أية سفينة فضاء من كواكب أخرى قبل وصولها إلى الأرض بربع ساعة وهذا ما لم يحدث فى حالة هذه الخزعبلات التى ظهرت فى روسيا . . وقال سير كلارك أيضًا : إن هناك أشياء غريبة تحدث حولنا وهناك أصوات فى الفضاء الخارجى . . وأشياء لا أعرف كيف أسميها تؤكد وجود شيء ما لا

نعرفه بعد وليس من المستبعد أن تظهر على الأرض . ولكن الشوشرة الإعلامية هي التي تفسد علينا متابعة مثل هذه الأحداث بهدوء وبالعقل .
وتحدث الأمير سلطان فقال متوجها إلى المستمعين في الرياض ونيويورك
وواشنطن واثلاثا : إن الأستاذ أنيس منصور كاتب عربى كبير وله
مؤلفات كثيرة عن الذين هبطوا من السماء والذين عادوا إليها . . وهو
الذى أشعل خيال ملايين الشبان العرب . . وأنا قرأت كتبه وأنا صغير .
على كل حال هذه مناسبة للإعلان عن كتبه . وضحك المتفرجون الذين
جمعتهم شبكة تلفزيونية واحدة .

شئ عجيب . .

هذا رائد فضاء يتعثر وسقط على الأرض رغم أنه يرتدى قميصا
وينطلقوناً وتحت قدميه رخام يلمع والشمس طالعة . . سألته هل تعثرت
هكذا على القمر . .

أبدا كنت أفقر والأصوات تحيى من الأرض تصرخ فى أذنى من
الضحك وأصوات أخرى تنبهنى ألا أنسى نفسى وألا أنسى مهمتى .
وصوت زوجتى يقول لى : إننى أدعوك . . أما الذى أسقطنى على القمر
فقد كان الضحك الشديد والمفاجأة عندما سمعت زوجتى تقول : الباب
يدق لابد أن أفتح بسرعة إنها والدتك وأنت تعرف كم هى حساسة ولأية
درجة .

سألت رائد الفضاء السوفيتى ليونوف الذى دار حول الأرض سنة كاملة
قال : لم يكن يضايقنى إلا أن المركبة الفضائية ضيقة . ولكنها الدرع الوحيد
الذى يحمينى حتى أعود إلى الأرض .

قلت له شئ فظيع جداً أن تكون سجيناً على أعلى المستويات . . لا
أعلى ولا أسفل . . سجن فقط ! سجن بلا أمل فى الفرار . . فالفرار هنا
معناه الموت .

كيف كنت تأكل وتشرب ؟

فاشار بيده . إن هذه قصة طويلة وإن مجرد ذكرها يصدده عن الطعام الذى كان أمامنا .

وأنا أعرف القصة . فقد تدرب الرواد السوفيت فى بدرونيات تحت الأرض ولفترات طويلة على تحويل المخلفات الإنسانية إلى طعام وتحويل البول إلى ماء صالح للشرب . . وإن هذا ما حدث فى رحلة تيتوف . وما سوف يحدث بعد ذلك عندما يستأنف الإنسان رحلاته إلى المريخ . فالسفر إلى المريخ يحتاج إلى ستين ونصف السنة . تبدأ هذه الرحلة من الأرض ويتوقف الرواد بعض الوقت فوق القمر . . ليس فوق القمر . ولكن فى كهوف تحت القمر . . وفى هذه الكهوف يستعد الرواد للرحلة الطويلة بالتدريب على الأكل والشرب والجاذبية والضغط والأشعة الكونية . وبعد ذلك يتجهون إلى المريخ أمريكان وروس وألمان فالرحلة باهظة التكاليف لابد أن تتحملها الدول جميعاً . . فلم تعد هناك أسرار علمية بين الدول . . فكل قواعد اللعبة تعرفها كل الدول . والفرق بينها فقط هو فى تطبيق هذه النظريات .

إن الأجهزة الحديثة قد وسعت الدنيا حولنا . . فمن سبعة قرون كان العلماء يعتقدون أن الكرة الأرضية هى مركز الكون كله . . وأن الكون قطرة بالضبط ١٠٩٣٧٥ ميلاً - تصور .

وفى سنة ١٦٢٠ أعلن الفلكيون أن قطر الكون كله - الذى مركزه الأرض أيضاً - هو بالضبط ٨٠٣, ٠٠٠, ١٧٠ أميال - بالضبط كيف ؟

وجاء الفلكى العظيم كوبرنيكوس وأعلن أن الأرض ليست مركز الكون . . أى إن الإنسان ليس هو سيد الكون . . وإنما الأرض كوكب يدور حول الشمس مثل بقية الكواكب . . وإن فى الكون ما لا حصر له من النجوم والكواكب الأخرى .

ولما تطورت العدسات وكبرت واتسعت اتسع الكون وامتد أيضًا وقالوا إن هناك شيئًا اسمه « السديم » هذا السديم هو جزيرة من جزر الكون . هذه الجزيرة تضم ألوف ملايين الملايين من النجوم وأضعاف هذا العدد من الكواكب مثل الأرض . . وإن في الكون كله ألوف ملايين السدم وإن أقرب سديم إلينا يبعد عن الأرض ألف مليون سنة ضوئية « أى بالكيلومترات = ألف مليون في ١٨٦ ألف ميل $\times$ ٢٤ ساعة $\times$ ٦٠ ثانية اضرب أنت على مهلك .

ولن ينسى تاريخ الفلك ذلك الطفل الصغير الذى اسمه ادويج هيل عندما كان فى الرابعة من عمره سأله أبوه : هل تذهب إلى السيرك أو تأكل آيس كريم ؟

قال : ضعننى فوق هذا التل كى أرى الشهاب الذى سوف يسقط الليلة من السماء .

ولما بلغ الحادية عشرة من عمره كتب مقالا عن كوكب المريخ نشرته كبريات الصحف .

هذا العالم الرياضى أدويج هيل هو الذى قال : ما الدين ؟ الدين هو هذا الذى نحس به بعيدًا عن الناس فأنت تفكر وتعمل بعيدًا عن الناس . . هذا الشعور العميق بالخير والحب والسلام وتقديس كل هذا الذى خلقه الله . . من حجر إلى شجر إلى حشرة . . كل هذه الأرض مكان للصلاة والاحترام اللانهائى لمن خلق ذرة الرمل . . وخلق ألوف ملايين السدم فى نظام لا نعرف عنه إلا القليل وفى حكمة لا نعرف منها إلا اليسير . . من هذا الجاهل المغرور الذى يقول : لا إله هناك . . فليفضل بالجلوس إلى جوارى فوق جبل فى ليلة صافية ولينظر إلى السماء إن استطاع .

فضيحة الغرفة المجاورة لمكتب الرئيس !

الناس تسعدهم الفضيحة : فهي فرصة للشهامة في الآخرين !
الفضيحة هي (الصرف الصحي) للعلاقات الإنسانية !
أمتع ما في الفضيحة هو ذلك الجزء الذي لم ينشر !
معظم الناس يجدون متعة في الفضائح ، والباقون يصدقونها !
الفضيحة : تطير . . والحقيقة : تزحف !
الحقيقة شيء نادر ، ولذلك يجب أن تحرسها بجيش من الأكاذيب !
لو لم تكن هناك خيانات زوجية ، لمات رجال الدين من الجوع !
الصحف الصفراء نصفها إعلانات ، والنصف الآخر فضائح !



إنها إذن الفضيحة التي انشغل بها الرأي العام الأمريكي في بداية
الحملة الانتخابية للرئاسة . والمفضوح هو المرشح الديموقراطي بل
كلنتون . فقد فصل أحد الموظفين ، وأقسم هذا الموظف أن يفصحه فلا
يدخل البيت الأبيض . فادعى أنه كان على علاقة بخمس من النساء .
إحداهن مطربة كباريه . ولكن المحكمة رفضت الدعوى . . فعادت

مطربة الكباريه تقول إنها كانت على علاقة دامت ١٢ عامًا . وعندها صور وتسجيلات . ودفعت لها إحدى المجلات مائة ألف دولار . . وفي مؤتمر صحفى جلست المطربة تحكى ما كان بينها وبين المرشح الديموقراطى . وظهرت قبل ذلك زوجته المحامية هيلارى التى لم تشأ أن تغير اسمها وتتخذ اسم زوجها مما أسقطه فى الانتخابات السابقة . . فقد وجد المواطنون الأمريكان أن هذا المرشح الذى لم يفلح فى أن يجعل كلمته تمشى على زوجته . . فكيف يكون له رأى وقوة فى المشاكل الدولية . . ورأى الملايين الزوجة والعشيقة ، أما العشيقة فقد صبغت شعرها الأسود فى لون البلاتين . ولها عينان خضراوان وساقان جميلتان . ولكن هذه الهيمة التى ظهرت عليها والمفردات التى تستخدمها جعلت صورتها تهتز أمام الناس . . ثم إنها ادعت أنها جامعية . . والحقيقة أنها لم تدخل مدرسة فمن الصعب أن تكتب اسمها . . وادعت أن لقاءها الأول كان فى فندق سنة ١٩٨٠ . . ولكن هذا الفندق لم يفتح أبوابه إلا بعد ذلك بستين . وظهرت زوجته الجميلة الذكية وهى واحدة من أكبر مائة محام فى أمريكا . وتحدثت ورأى الناس الفارق بين (الشرشوحة) وبين المثقفة الجميلة المحترمة والحريصة على زوجها . . واعترفت الزوجة بأن حياتها معا كانت صعبة . ولكنها رأيا معا مواجهة كل المشاكل وحلها . . وطلب التلفزيون من المشاهدين أن يختاروا بين الزوجة والعشيقة . والأغلبية اختارت الزوجة . .

ومن أربع سنوات ظهر مرشح ديمقراطى آخر هو : جارى هارت . واكتشفوا أنه كان خائناً لزوجته . وهذه رذيلة يرفضها الناخب الأمريكى . وانسحب من انتخابات الرئاسة . .

وقد أنكر المرشح كلتنون كل ما نسبته إليه هذه المطربة . انتهى . ولكن إذا ثبت أنه كذب ، فهذه هى النهاية . فأمريكا دولة قامت على أن الإنسان لا يكذب . وإذا ثبت أنه استسلم لهذه الفتاة ، فمعنى ذلك أنه

كان ضعيفا إلى هذه الدرجة ، فإن الشعب الأمريكى لن يأمنه على مستقبله ومستقبل البشرية . . فما الذى يريده المواطن من الحاكم ؟
يريده أن يكون قويا . وأن يكون مخلصا وألا يكذب . وسوف يحترم الشعب شجاعته إذا اعترف بالخطأ . وقد حدث قبل ذلك فى سنة ١٨٤٤ عندما واجه المرشح الديموقراطى كليفلاند فضيحة أنه كان أباً لطفل غير شرعى . . وجاءه مدير حملته الانتخابية وسأله : ماذا أفعل ؟
فقال له كليفلاند : قل الحقيقة !

واعترف بالحقيقة واعتذر أيضًا . فقد كان كليفلاند أعزب . ولكن الشعب الأمريكى اختاره رئيسًا لأنه كان شجاعا ولم يكذب عليه واخترع الناس له أغنية يرددونها على لسان ابنه غير الشرعى . الأغنية تقول .
ياماما . . ياماما . . بابا فى بابا فى . . إنه فى البيت الأبيض !
وكان له صديق اسمه فولسوم هو الذى يرعى هذا الطفل . وقد وافق الرئيس كليفلاند على أن يعترف بالولد . فكان اسم الطفل : أوسكار فولسوم كليفلاند .

وبعد ذلك تزوج الرئيس كليفلاند أخت صديقه هذا ، وأقيمت الأفراح واللىالى الملاح فى البيت الأبيض . . لأول وآخر مرة !
ويظهر أن الشعب الأمريكى لا يغفر لرئيسه المقبل أية لخطبة فى الطريق إلى البيت الأبيض . . أما بعد ذلك فإن الشعب من الممكن أن يغمض عينيه وأذنيه . . كما إن الرئيس يكون قادرًا على حماية نفسه وإخفاء الحقيقة . وقد حدث كثيرًا .

فالرئيس أيزنهاور الذى اعتبره الشعب الأمريكى أباً له ، كان عاشقا للفتاة البريطانية التى كانت تقود سيارته الجيب أثناء الحرب . ويقال إنه فكر فى طلاق زوجته والزواج من هذه الفتاة . ولكن أصدقاؤه منعه . وكان الناس يعرفون هذه الحكاية الغرامية . . ولكنهم سكتوا .

والرئيس الأمريكى بوكانان تقدم لخطبة فتاة . ولكن أهلها رأوه لا يليق بها . . فقد كان سياسيا تافها . . ولكن الفتاة أحبته . . ولما رفضوه انتحرت الفتاة . ومنعوه أن يمشى فى جنازتها . . ولكن بعد ٣٧ عاما أثناء انتخابات الرئاسة سنة ١٨٥٦ روت إحدى الصحف أن هذا الرجل لم يكن متزنا . فالبنات التى أحبها انتحرت . وهو أيضًا حاول الانتحار ولكن الحبل الذى تعلق منه قد انقطع . والدليل على ذلك أن رقبته معوجة وأنها تميل على الجانب الأيسر . ولكن الحقيقة ، غير ذلك ، فهو يرى بعين واحدة . أما العين الأخرى فلا يرى بها ، ولذلك فهو يدير رأسه لكى تتوسط العين الواحدة مجال الرؤية . . وهذا ما يجعله يميل برأسه - وهذا عيب خلقى لا علاقة له بالحب والزواج !

والرئيس هيز كان يحب أخته حبا شديداً . ولا يستطيع الابتعاد عنها . وحتى عندما اضطر أن يبعد عنها اختار مكانا متوسطا بين مكان عمله ومكان إقامة أخته لكى يراها كل يوم . . وعندما تزوج أقامت أخته معه . وماتت أخته وهى تلد توأمين . وماتت قبل أن يكون رئيسا . ولما تزوج قال لزوجته : الآن تستطيعين أن تقومى بنفس الدور الذى كانت تقوم به أختى !

ولم يعرف أحد ذلك إلا بعد انتخابه !

والرئيس جرون كيندى : شباب وجمال وفلوس . وقد بالغت الشائعات فى علاقاته وغرامياته وفضائحه . ولكن كيندى كان مريضا . وكانت شكواه من الانزلاق الغضروفى ومن آلام دائمة فى كتفيه . . آلام تصل إلى حد الصراخ الليلى . . وأكبر فضائحه هى قصة مارلين مونرو أجمل من خلق الله وأكثر النساء براءة وطفولة وبلاغة فى التمثيل . فقد ساقها حظها السيئ إلى الرئيس كيندى . وعرفت الدنيا هذه العلاقة . . وعرفت سفالة الرئيس كيندى الذى نخلى عنها لأخيه . . المخابرات اغتالته لأسباب كثيرة فبركتها طبعاً !

ولم تكن مارلين مونرو هي الوحيدة في حياة الرئيس . ورغم أنه اغتيل وزوجته إلى جواره . فقد اكتشفت الزوجة بعد ذهابه فضائح كثيرة جعلتها تسارع بالزواج من البليونير أوناسيس لتؤكد أنها تريد أن تنساه !

والرئيس جيفرسون كانت له عشيقة سوداء فعرف الناس وسكتوا ! ولما سئل اعترف . واحترم الناس ضعفه وصراحته . .

والرئيس فرانكلين روزفلت كان عشيقا لسكرتيرة زوجته . ولم يعرف الشعب الأمريكي ذلك إلا بعد انتخابه رئيسا لأمريكا !

حتى الرئيس الأمريكي جورج بوش لم يسلم من الشائعات فقبل في سنة ١٩٨٨ إن له عشيقة . ولكن لم يفلح أحد في إثبات هذه التهمة ! وكذلك في بريطانيا التي هي أكثر تشددا من أمريكا . .

فقد تساءل الشعب البريطاني لماذا لم يتزوج إدوارد هيث رئيس الوزراء عن حزب المحافظين . والجواب : هو حر . ولكن الناس تساءلوا : نريد أن نعرف إن كان (رجلاً) أو أى شىء آخر !

ونشرت الصحف البريطانية صوراً لادوارد هيث عندما كان مجنّداً في فرنسا . . أى كانت له صديقات كثيرات . . وإنه يشرب ويرقص وإنه لم يكتف بواحدة . . يعنى أنه رجل مائة في المائة . . ولكنه فضل أن يظل حراً . وليس رجلاً شاذاً . لأنه إذا كان شاذاً فمعنى ذلك أن رجلاً آخر يتحكم فيه بينما هو يتحكم في بريطانيا !

وعندما تأخر زواج الأمير تشارلز ولى العهد أتوا به في التلفزيون يسألونه عن السبب . . لماذا هو الآخر لم يتزوج حتى الآن ؟ فكان جوابه . إنها مسألة نصيب !

والشعب البريطاني يريد أن يعرف لماذا تأخر زواج ملك المستقبل . هل هو شاذ ؟ ففي الأسرة المالكة شواذ كثيرون . . أو هو رجل ابن رجل لم

يجد البنت المناسبة . فراح الأمير يحكى حكايات في التليفزيون غير لائقة .
أو غير مهذبة . كان يقول : إن أمى حذرتنى أكثر من مرة أن أعود
مبكراً . . وأن اعتدل في الشرب . . والرقص والعلاقات العاطفية . وقد
وعدتها كثيراً . ولكنى أحاول . . أى إنه رجل عادى جداً . . وإنه ليس
شاذاً . وإن الشعب البريطانى يجب أن يطمئن على ذلك !



أستاذنا عباس العقاد اعترض على زواج مصطفى النحاس باشا من
السيدة زينب الوكيل . واندعش الناس من تدخل العقاد فيما لا يعنيه .
ولكن العقاد أعلن أنه كمواطن يعنيه جدا هذا الأمر . فكل ما يتعلق
برئيس الوزراء يعنى جميع المواطنين . لأنهم يريدون أن يطمئنوا على سلامة
حكم وأحكام الرجل الذى يحكمهم . فإذا تزوج النحاس باشا فتاة صغيرة
جهيلة فإنها هى التى سوف تحكمه . . ولذلك يجب أن يعترض الناس جميعا
على أن تحكمهم فتاة صغيرة . . وليس رئيس الوزراء . وقد كان النحاس
باشا ضعيفا أمام زوجته الشابة . فقد كانت هى التى تحكم وهى التى
تتحكم . . وكان العقاد على حق تماما !

ومن ٢٥ قرنا اعترف يوليوس قيصر بنقطة الضعف التى لا يقوى على
التغلب عليها . فقد حدث أن كان فى حفلة كبرى لتتويجه أن تبول ابنه
الصغير على ملابسه . . فنهض الوزراء يعالجون الموقف . ولكن يوليوس
قيصر قال حكمته الشهيرة : اتركوه يفعل ما بداله . .

فأنا أحكم العالم وأمه تحكمنى وهو يحكم أمه !

وليس كل الساسة الكبار بهذه الصراحة ولا الشجاعة . ربما كان آخر
الشجعان السيد سيسل يركنسون زعيم حزب المحافظين والعقلية الباهرة
والرجل الوسيم . فعندما كان وزيراً للتجارة أحب سكربتته . وأحبته .
ووعدها بالزواج ثلاث مرات . ولكن الظروف لم تكن تساعد . . وخاصة

في حزب المحافظين . ولما نجح حزب المحافظين في الانتخابات من ٨ سنوات انشغل عنها . وطلب إليها أن تسافر إلى مكان بعيد . وسافرت إلى بلجيكا . ولكنها كانت حاملا في الشهر الثاني . ولما بدأ يتصل منها انتقلت منه فراحت تطلق الشائعات عن حبها وإنها حامل . وأصبحت الشائعات حقيقة . وانسحب من زعامة الحزب - مع أسف الجميع ، ثم إنه أصدر بيانا اعترف فيه بالعلاقة واعترف ببسوة الطفلة وإنه سوف يساعدها ماليا . واختفت السكرتيرة وتوارى الزعيم . ولكن فجأة ومنذ أيام أعيدت الفضيحة مرة أخرى . فعشيقة يركنسون واسمها سارة قرأت في إحدى الصحف أنها تقارن بينها وبين غيرها من العشيقات اللاتى شعارهن : يطعن القبلات ثم ينشرها . . فتقدمت إلى القضاء تعرض ما لديها من خطابات وصور . . وقرأت المحكمة الخطابات ورأت الصور . وأعلن القاضي أنها قصة حب حقيقية وقائمة على الاحترام والصدق . وعرضت سارة على المحكمة أن صحفا ومجلات طلبت منها هذه الصور مقابل نصف مليون جنيه . . وأنها رفضت ذلك احتراما لحبيبها . وأنها لو كانت تتاجر بهذه العلاقة لكسبت الكثير . .

ولكن الصحيفة رفضت أن تعتذر لها . ولا تزال القضية معروضة أمام القضاء !



أما الرئيس الأمريكى هاردينج ، فهو أغرب وأعجب رؤساء أمريكا . فقد كانت له غرفة ملحقه بمكتبه . . في البيت الأبيض . وكان يلتقى فيها بعشيقتة . وعلى الباب حراس شدداء يمنعون أحدا من الدخول وخصوصا زوجته . . أما هذه الغرفة فمهجورة وبها بقايا الأدوات . . المقاعد والمكاتب والأسلاك الكهربائية . . وهى مظلمة وعلى الأرض تراب . ولكن الرئيس هاردينج كان من عادته أن يفتش الأرض !

وكانت هناك علامة متفق عليها مع الرئيس إذا أصرت زوجته على الدخول ، بعد أن تناثرت الشائعات . . فكان الحارس عندما يراها يطلق صوته ينبه الحراس الآخرين بضرورة الوقوف احتراماً للسيدة الأولى . والحقيقة أنه ينبه السيد الرئيس !

وكان الرئيس هاردينج طويلاً وسيماً عريض الكتفين قوى الساقين كثيف الشعر . . وكان محبوباً من النساء . وقد تزوج فتاة جميلة وهو في السادسة والعشرين من عمره . . وكانت له علاقات كثيرة . حتى ظهرت العشيقة نان بيرتون . فاستولت عليه تماماً . ولم يكن الرئيس هاردينج في صحة كاملة . . إنها كان يشكو من الانتفاخ ومن الإمساك ومن التقلصات ومن الأرق . . وكانت زوجته تدير البيت الأبيض في غيابه مع العشيقة .

ولم يحدث في تاريخ الرئاسة الأمريكية أن أعلن أحد قبله أنه زاهد في الحكم . . كما كان زاهداً في عضوية مجلس الشيوخ . وأنه يريد أن يعيش بعيداً . . وكان يشرب دائماً ، ولكن ليس كثيراً . وكان يلعب القمار مع أصدقائه في البيت الأبيض . .

وفي إحدى المرات سافر إلى كندا . . وكانت معه العشيقة . وتلقى مكالمات لا أحد يعرف ما هي فقرّر العودة . ومات مسموماً . ويقال إن زوجته هي التي وضعت له السم .

ولكن الرئيس هاردينج كانت له مشكلة طبية لم يجدوا لها علاجاً . فهو في حالة (هياج) جنسى مستمر . وإشباعه لهذا الهياج كان مؤلماً . ولم يكن يجد لذة في كل ذلك . . ومرضه معروف باسم (ساتيريزيس) وهو يقابل مرض المرأة المعروف باسم نيمفومانيا - أى السعار الجنسي . . وعدم الارتواء مع الألم الشديد والبكاء أحياناً !!

وكانت حاشية أى رئيس أمريكى تعلم أن للرئيس غرفة ما . . وليس

بالضرورة ملاصقة لمكتبه . . وكانوا يسهلون رغبات الرئيس ولا يعترفون بذلك إلا بعد موته . .

والشعب الأمريكى لا يهجه إلا الطريق إلى البيت الأبيض . . الطريق الذى يرفصه الشعب بالثقة ، ويكون مسئولاً عن اختياره . . أما ما بعد ذلك فهم يتركون الرئيس لضميره . ويجدون له عذراً إذا هرب من المشاكل الاقتصادية والصناعية والسياسية إلى حضن إحدى العشيقات . . وقد فعلوا ذلك دائماً !

* * *

وبدأ الناس فى أمريكا يضيّقون بمطربة الكباريه التى ظهرت كاذبة أمام الملايين . .

وبعض الناس يقول : وإيه يعنى . . إننا نختار رئيساً لأمريكا وليس رئيساً للفاتيكان !

وفى نفس الوقت انتشرت أغنية مع صورتين واحدة لجارى هارت المرشح الأسبق وواحدة لبل كلنتون المرشح الحالى . الأغنية تقول : إلى كل البنات الحلوة التى أحببناها . . فالبيت الأبيض لا يهم يابنات . . لا يهم ! ويتساءل الناس فى أمريكا : ماذا يحدث للعالم لو أن الشعب الأمريكى طالب باستقالة روزفلت فمن الذى كان فى استطاعته أن يواجه هتلر وموسوليني وستالين فى أوروبا . . لو ذهب روزفلت لجاء رئيس أمريكى تقى ورع ينادى بعزلة أمريكا عن مشاكل أوروبا . . ليسودها هتلر وستالين !

وعلماء النفس يقولون : إنها ظاهرة (لوليتا) . . الطفلة الأنثى التى تكتسح أكثر الزوجات احتراماً ووقاراً . . إن طفلة فى الخامسة عشرة تستطيع أن تذيب الحديد . . ولو كان هذا الحديد جالسا على عرش الولايات المتحدة !

يعنى أن الشعب الأمريكى يجد للمرشح الديموقراطى بعض العذر . فالذى يهم أمريكا ليس مدى إخلاصه لزوجته التى أعلنت أنها تحبه وتتمسك به وتصدقه ، ولكن الأهم هو مشاكل أمريكا الاقتصادية والصناعية ومواجهة اليابان والتعايش مع روسيا بعد أن أصبحت حليفا وليس عدوا . . إن الأمريكان اعتادوا على العداوة . . وعلى أن يحسبوا لها ألف حساب فى البر والبحر والجو والفكر . . والآن يجب أن يساعدهم الرئيس القوى على التعايش والتكيف . .

أما إذا ثبت أن المرشح الديموقراطى كان كاذبا ، فبوش هو الرئيس القادم لا محالة . . وقد أدت فضيحة المرشح الديموقراطى إلى اختصار الحملة الرئاسية تماما . . والطريق مفتوح أمام الرئيس بوش الذى جريه الشعب الأمريكى سنوات رئاسة ريغان ، وقبل ذلك فى الأمم المتحدة وقبل ذلك فى المخابرات . . ثم هو الذى انتصر فى الخليج والذى ساعد على انهيار روسيا ونهاية الحرب الباردة ودفن القنابل الذرية . . ثم إنه من المؤكد لن ينظر لغير زوجته السيدة بربارا وأولاده وأحفاده !

١٠. دقائق وثانية واحدة بعد أن خلق الله هذا الكون الذي يتمدد!

آخر كلام لعلماء الفلك : أن الله قد خلق الكون من ١٥ ألف مليون سنة . . وأن الخلق كان فجأة . وكان على شكل (انفجار عظيم) . هذا الانفجار العظيم بدا بشيء مادي في حجم حبة السمس . هذه السمسمة مطلقة الكثافة . وانفجرت وتمددت شظاياها أو بذورها . . أو عواصفها المادية في كل الاتجاهات . . وتسارعت مليون مليون مرة في أقل من ثانية . .

ولو فرضنا أن الكون الذي نعرفه وهو ١٪ من الكون المجهول المظلم البارد ، في مساحة أستاذ القاهرة ، لكانت الأرض في مساحة علبة كبريت ولو فرضنا أن هذا الكون عمره سنة واحدة . لكان معنى ذلك أن (الانفجار العظيم) قد وقع في أول ثانية من أول دقيقة يوم أول يناير . ولكانت الحضارة الإنسانية قد ظهرت في آخر ثانية من آخر دقيقة يوم ٣١ ديسمبر !

فالإنسان حديث العهد بالظهور على سطح شيء ضئيل جدًا اسمه الكرة الأرضية ومنذ وقت قريب جدًا .

فكيف حدث كل ذلك ؟

نحن لا نعرف كيف خلق الله الكون . . ولا نعرف متى كان ذلك .
ونحن نعتمد على الخيال والشك . . فلا بد أن يتخيل الإنسان كيف يمكن
أن يحدث ، ولابد أن يتشكك فيما نصل إليه من معلومات من حين إلى
حين حتى لا يختلط الخيال بالواقع . . أو الوهم بالحقيقة . .

ولكن الشيء الذى يدعو إلى الدهشة حقاً هو أن الإنسان في جميع
مراحله كان لديه شعور عميق بأن الخلق له بداية . . كل شيء له بداية .
وله نهاية . . وأن هذه البداية كانت من العدم . . أى إنه لم يكن هناك
شيء ، قبل أن يظهر الكون . . كان هناك الفراغ . . أو العدم . . أو
العماء أو الضباب . . وفجأة اتخذت المادة أشكالاً . . وتحولت المادة إلى
المجرات ومعنى ذلك أن كل شيء له بداية وأن بداية كل الأشياء واحدة .

وكل الأساطير القديمة لها هذا المعنى . . بل إن الحضارات البدائية
ترى أن الكون بدأ على شكل بيضة . . والبيضة فقس وأفرخت هذه
الكائنات . . أو أن الشر كان في البداية وانتصر عليه الخير . . والشر هو
الفوضى والعدم . . والفراغ واللاشيء . . والخير هو النظام والحكمة .
وإن ظهور الكون هو انتصار للعقل والحكمة على الفوضى . .

وإن الصراع بين الخير والشر إلى الأبد . . وليست الأمراض والأحقاد
والحروب إلا محاولة للشر أن يمحو كل ما هو خير في هذه الدنيا . . أو هذا
الكون .

وهذا واضح في الحضارة السامية وحضارتى بابل وآشور والحضارة
المصرية أيضاً . . فعند الفراعنة أن الإله الشرير « أيب » كان في حالة
تربص دائم ليحطم الخير والنظام والعدل .

وعند الإغريق كانت للآلهة كل صفات وعيوب البشر . . لها نواقص
البشر ولكن لها قدرة الآلهة . . ولذلك أصبح الشر قوياً . .

ومن العجيب أيضًا أن كل الأساطير قد جعلت ظهور الإنسان متأخرًا . . أما الكون فظهر أولاً . . أى إن المسرح قد أقيم من الأرض فوق الماء ثم أضاءت السماء بالنجوم والأقمار قبل ظهور بطل الكون : الإنسان على مسرح الحضارة . .

وكل الأساطير تقول لنا : إن الإنسان بعد أن خلقته الآلهة ندمت على ذلك . . لأنه متمرد بتكوينه . . فعلى الرغم من أنه من صنع الآلهة ، فإنه يقف معها على رأس المساواة . . ثم يقول : لا . . وتثور عليه الآلهة وتحاول القضاء عليه . . ولكنها لا تستطيع . . فعلى الرغم من أن الإنسان كائن ولد ليموت ، فإنه يموت ولكنه لا يفنى . . فحكمته تتناقلها الأجيال . . فالحكمة أطول عمرًا من الإنسان . . وهذا هو التحدى الوحيد لكل الآلهة .

وفي كل الحضارات القديمة نجد ظاهرة الطوفان الذى أغرق الأرض وقضى على الإنسان . . ولكن الإنسان يعود إلى الظهور واستئناف الحياة من جديد . . فهو أقوى من الطوفان وأبقى من الموت وهو يمتد إلى الأمام . . إلى المستقبل . . فالإنسان هو الحيوان القادر على أن يكون له مستقبل . .

وكل محاولات آلهة الإغريق للقضاء على الإنسان قد فشلت . . مثلاً لقد صنع آلهة الإغريق (بنات الميدوزا) . . إذا نظر إليها الإنسان تحول إلى حجر . . مات فى جلده . .

وأصبح كفنا ونعشا لعبقريته . . فالإنسان محكوم عليه بأن يكون حجراً . . أى يعود إلى بدايته . . وكانت بدايته حجراً دبت فيه الحياة فصارت بشراً ولكن الإنسان اخترع حيلة صغيرة قضت على الميدوزا . . لقد اخترع لها المرأة . . فلما نظرت إلى نفسها فى المرآة صارت حجراً . .

وغير ذلك من ألوف الحيل الإلهية للقضاء على الإنسان : الذى نصفه إله ونصفه حيوان . .

ومن مئات السنين والإنسان ينظر إلى السماء فوقه ويرصد ويحلل ويفسر ويتخيل . وكلما اخترع الإنسان عدسة للرؤية ظهرت له السماء أبعاداً وأحجاماً ومسافات . . وعلى الرغم من أن الكرة الأرضية ليست إلا بالونا يدور في الفضاء ، ونحن عندما نطل من هذا البالون نرى الكون حولنا فإن الإنسان استطاع من موقعه هذا أن يعرف القليل عن الكثير جداً الذي لا يعرفه .

ولم تتوقف غريزة الإنسان في أن يعرف واهتدى الإنسان إلى نظريات كثيرة في تفسير ماذا حدث بالضبط ؟ كيف ظهر الكون . . أى كيف خلق (الله) الكون - وكلمة (الله) هذه من عندي أنا . . فقد جاء اعتراف علماء الفلك والفيزياء منذ شهر واحد بأن لابد أن يكون لهذا الكون خالق ؟ !

وأحدث نظرية لنشأة الكون هي التى تقول بأنه فجأة . . مرة واحدة . ظهر الكون . وكان ظهوره انفجاراً جبّاراً هائلاً . . الانفجار قد وقع بعيداً عنا . . المسافة بيننا وبين مكان الانفجار حوالى ستين ألف مليون سنة ضوئية .

السنة الضوئية هي وحدة القياس في هذا الكون الهائل .

(والسنة الضوئية هي المسافة التى يقطعها الضوء في سنة . . والضوء يقطع ١٨٦ ألف ميل في الثانية الواحدة . . والسنة الضوئية سنة لقياس المسافات وليست سنة زمنية . . أى سنة شمسية) وإنه من هذا الانفجار العظيم قد انطلقت المادة والغازات الساخنة (مليون مليون مليون درجة مئوية) في أقل من ثانية في كل الاتجاهات . . وبسرعة واحدة . . وخطوط مستقيمة ولها درجة حرارة واحدة ثابتة . . وفي غاية الانسجام والاتساق . وظلت هذه الشظايا - إذا جاز هذا التعبير - تتسارع وتتباعدها ملايين ملايين والمجرات التى تتكون من ألوف ملايين النجوم . . وألوف ملايين المجرات

التي تتباعد ألوف ملايين السنين الضوئية . . وعواصف من الغازات والتراب والنار والجليد والمواد العضوية . .

وكلها تدور بعضها حول بعض . . في مسارات دائرية أو مفلطحة أو حلزونية . . وكلها تخضع لقانون واحد . . الكون كله يخضع لقوانين واحدة ثابتة تمامًا . . والكون كله يمتد ويتراجع ويتسارع ويتماسك ويتباعد ويدور . . والأجرام السماوية كالإنسان يولد ويشيخ ويموت .
وفي الكون (حضانات) تتولد وتتخلق فيها النجوم والمجرات . ألوف ألوف الملايين . .

والكون لا يستطيع العقل أو الخيال أن يتصور مدى اتساعه ويكفى أن نقول إن نجما واحدا لو انطلق ألوف ملايين السنين الضوئية في أى اتجاه فإنه لن يصطدم بنجم آخر !!

وظلت هذه النظرية سيدة لكل النظريات التي اهتمت إليها علماء الفيزياء الفلكية أكثر من خمسين عامًا وظهرت نظريات أخرى تحاول إبطال هذه النظرية . .

أخيرا جاءت الصور من الفضاء الخارجى تؤكد أن هذه النظرية صحيحة .

وفي ١٨ نوفمبر سنة ١٩٨٩ أطلق الأمريكان سفينة اسمها (كوب) وهي اختصار لثلاث كلمات معناه مرتاد خلفية الكون - cosmic back ground Explorer في مدار ارتفاع ٦٠٠ كيلو متر حول الأرض .
والسفينة مزودة بأدق الأجهزة التي اخترعها الإنسان . فاحتمال الخطأ في رصد درجات الحرارة والكثافة المادية والضوئية تصل إلى ثلاثة من ألف مليون للمليمتر . . وأرسلت السفينة أكثر من ٤٥٠ مليون معلومة . .

ولم يجد العلماء في كل هذه المعلومات الدقيقة التي تلتقطها محطات

للمتابعة الأرضية في القطبين الجنوبي والشمالي وهى تدور في فلك حول خط الاستواء ، شيئاً جديداً .

ولكن في العام الماضى أحس العلماء فى أمريكا بأن شيئاً خطيراً قد سجلته السفينة . فعكف العلماء سنة كاملة على تحليل المعلومات الهائلة الجديدة .

وأول إنجاز لهذه السفينة : أنها سجلت صورة للتحويلات الكونية البعيدة عن أجهزة السفينة بحوالى ستة أميال وأمامها ٢١ صفراً . . ولكن هذه الصورة ليست هى الشيء الهام . .

ولكن الشيء الهام جداً ، والذي هو أعظم اكتشاف عرفه الإنسان فى هذا القرن وربما فى كل القرون : أن هناك اختلافات فى درجات الحرارة . هذا هو الاكتشاف الخطير الأول . .

والاكتشاف الخطير الثانى : أن هناك موجات . . تموجات فى حركة الاندفاع والتسارع المادى إلى ما وراء وراء فى هذا الكون . .

ولم يكد العلماء يكتشفون ذلك حتى فرقعت زجاجات الشمبانيا . وصرخوا بأن نظرية (الانفجار العظيم) صحيحة !

وواحد قال : يبدو أن الكون له بداية . وأن هناك خالقاً !

أما تفسير هاتين الملاحظاتين الخطيرتين فهو أن ظهور بقع حرارية متفاوتة الحرارة والبرودة دليل على أن وقتاً قد مضى منذ الانفجار العظيم . . وأن الوقت الطويل قد أدى إلى انخفاض فى درجات الحرارة . وهذا الانخفاض يصل إلى واحد على ألف مليون من الدرجة المئوية الواحدة . وهذا ما لا تستطيع أية أجهزة اخترعها الإنسان على تسجيله ولكن (كوب) التى تكلفت مائة وستين مليون دولار استطاعت ذلك .

أما الملحوظة الثانية وهى أن هناك رعشة أو رفرة فى تموجات الانفجار العظيم فهى أكبر دليل على صحة النظرية . . فقد كانت هناك بداية .

والبداية قد مر عليها وقت ما . والوقت أدى إلى انخفاض الحرارة وانخفاض السرعة وإلى استجابة الاندفاع إلى الجاذبية . .

إذن هذه هي البداية . . أو إن الصورة التي التقطتها السفينة (كوب) كانت قريبة من البداية .

وقد قرر العلماء أن هذه الصورة التي وصلت إلى السفينة قد جاءت بالضبط بعد خلق الكون بثلاثة مائة ألف سنة ، عشر - دقائق وثانية - إذا كان عمر الكون سنة واحدة . .

فهى - إذن - صورة تذكارية للهيئة الكونية بعد الخلق . .

ويقول العلماء كأننا حضرنا لحظة الخلق . . وأنا نسمع صوت الله سبحانه - وهو يقول للكون : كن . .

أو نحن لم نسمع صوت الله ، ولكن سمعنا صده . . نحن لم نر أصابع الله - سبحانه - وإنما رأينا ظلالها على الفضاء اللانهائى . .

إن هذا الذى حدث ليس انفجاراً (فى) الفضاء ، وإنما هو انفجار الفضاء . . انفجار المكان والزمان معا . .

نعود إلى (لعبة الكبريت) فى إستاد القاهرة .

إن كل الذى تعلمناه وعرفناه وأحببناه وكرهناه موجود على سطح هذه اللعبة . . كل العظماء والأشرار . . كل الأنبياء والرسل كل الأبطال كل العلماء . . كل الأدباء والشعراء . . وكل تحديات الإنسان قد ظهرت على هذه اللعبة . . كل شئ عظيم قد ظهر على سطح هذا الجسم التافه .

والإنسان حديث العهد بالظهور فى هذا الكون . . عمره ثانية واحدة . . إنها صحوة . . إنها ليست إلا يقظة قصيرة فى عمر لا نهاية له . . وعلى الرغم من أن الإنسان ضعيف وأنه ولد ليموت . فإن عنده حب استطلاع عظيماً . . وعنده شجاعة وعنده خيال . . ولن يتوقف عن

المعرفة... وعن التساؤل... حتى يعرف هذه الأسرار المعقدة التى حولنا .
فالذى نعرفه عن الكون الهائل ليس إلا واحدًا فى المائة... والباقى مادة
مظلمة باردة لا نهاية لامتدادها... ومن يدري ربما رجع الكون من الامتداد
إلى التقلص والانكماش والتساقط والتجاذب... فىكون الانفجار العظيم
الثانى... انفجار التقلص... بعد انفجار التمدد... وبعد ألوف ملايين
السنين يعود إلى التمدد... نحن لا نعرف .

إن سفينة واحدة على مسافة ٦٠٠ ميل من الأرض قد نقلت إلينا ما لا
عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر... فإذا لو انطلقت
السفن تحمل المراصد الفلكية إلى خارج المنظومة الشمسية... التى هى
الشمس وهى واحدة من ألف مليون مليون نجم فى أقرب مجرة لنا وهذه
الشمس تدور حولها تسعة كواكب أقربها بلوتو وأكبرها المشترى وأكثرها
لمعانا الزهرة... ويدور حول هذه الكواكب ٤٣ قمرًا وعشرات الألوف من
الجسيمات وألوف الملايين من الشهب... وكلها تدور حول بعضها البعض
حول الشمس... والشمس نفسها تدور ولكى تكمل الشمس دورة
واحدة حول مركز المجرة فهى فى حاجة إلى مائتى مليون سنة ضوئية - وفى
الكون ألف مليون مليون مجرة أخرى .

* * *

لقد كانت صرخة غريبة عجيبة من العالم الفلكى الأمريكى اسموت
صاحب هذا الاكتشاف العظيم وهو الملمحد والذى آمن ثم كفر وأخيرًا آمن
أن يقول : إذن لابد أن يكون لهذا الكون القديم إله .

وكان الناس الطيبون فى القرن السابع عشر يرون أن الله قد خلق هذا
الكون قبل ميلاد السيد المسيح بحوالى ٤٠٠٤ سنوات ١٩ - وفقًا لحسابات
الأسقف جيمس أشر ١٩

نحن - إذن - أحدث صورة من صور تطور المادة التى انفجرت من ١٥

ألف مليون سنة . . إن هذه المادة قد تطورت إلى وعى وإلى عقل وإلى إبداع إنسانى وإلى خيال وإلى عطش للمعرفة وإلى إصرار على الاستمرار إلى أعلى وإلى الأمام . .

ولكى تمتد عيوننا إلى جمال الكون وتنصت أعمق إلى موسيقى الخالق التى انتظمت كل ذرات الكون فى انسجام محكم . . ونحن لا نعرف إن كانت هناك حضارات عاقلة أخرى . . كم عددها . .

كم عدد الحضارات التى ذهبت والتى جاءت والتى تذهب والتى تمجىء . . وما الذى سوف يحدث لعلبة الكبريت التى عشنا عليها ولا نزال . . هل نتطوع بنسفسها . . هل نمضى فى إشاعة السموم فى كل ماء وهواء وطعام ونقضى على الإنسانية فى آخر لحظة فى يوم ٣١ ديسمبر . . أو نعيش حتى نصل إلى أول يناير من العام القادم ١٩

ماذا سيحدث لأرضنا . . ما الذى سوف نفعله بأرضنا . . بأنفسنا . ماذا سنفعل بما فعلته المادة فى كفاحها الذى استغرق ألف مليون سنة حتى إقامتنا على الأرض نرصد السماء ونضع آذاننا على صوت الخالق وهو يقول . كن . . ويمد قدرتنا على الرؤية لكى نشهد ظلال الأصابع المبدعة وهى تغرس القانون والحكمة والمهدف فى المادة الأولى لهذا الكون . . أى بعد برجة هذا الكون العظيم . .

إن سطح أرضنا هذه ليس إلا موقعا متواضعا على شاطئ المحيط الكونى الذى لا نهاية له ونحن نتطلع إلى الكون من فوق برغوت يدور حول علبة كبريت أو فنحن ذرة على بللج الكون ولكننا أفضل من الكون لأننا نعرف أننا نعرف ونعرف أننا نجهل . . فنحن أعقل من كل هذا الكون الذى هو أصلنا . . بدايتنا ونهايتنا وأملنا وطموحنا . . ونحن لا نعرف إن كنا وحدنا . . أو إن هناك بعدد الكواكب حضارات عاقلة . أى مليون مليون مليون مليون حضارة أخرى ؟

يقول أناس : لو وصفت لنا الهوى !

الذى هو شاب : يغنى . .
والذى هو رجل : ينطق بالحكمة . .
والذى هو شيخ : يحقر الاثنين . .

* * *

الذى هو شاب : له مستقبل . .
الذى هو رجل : له حاضر . .
الذى هو شيخ : له ماض . .

* * *

الذى هو شاب : يطير . .
الذى هو رجل : يمشى . .
الذى هو شيخ : يزحف . .

والشباب هو شباب القلب . . ولأننا في زمن مادی عملی ، فلم يعد
أحد يعرف مكان القلب ولا مكانه . . فالعلم مشغول بالطعام كيف
يدخل . . والصرف الصحی بعد ذلك !

ولكن القلب ووجع القلب الذى ليس علاجه الأسبرين . . والحب الذى هو هرش فى القلب لا تبلغه الأصابع . . والحب الذى هو ميكروب ينقل الصحة إلى كل الخلايا . . ليس هذا مما يشغل الناس الآن . .
فالناس يعتذرون عن الحب . ويعتذرون عن الخير والعدل والوفاء .
كأنها ظواهر بليدة مملوكة . . إنها تعطل مسيرة الحياة وقفزات التقدم .
وتجعل الإنسان منبطحا على الأرض وليس مندفعاً نحو الكواكب الأخرى . .

انظر إلى كل الصحف : كراهية . . وعند . . وترى . .
ولم يعد للقلب أخبار . . وإنما كل الأخبار للمعدة . . ولم تعد لزهرة
نضرة عناوين ، وإنما كل العناوين للرصاص والبارود وهتك الأعراض
والطلاق والسموم . .

انظر إلى كل الوجوه فى كل الصحف ونشرات الأخبار : إنها تفرغت
للكراهية والقتل والانتقام . فلا وقت عند أحد أن يحب وأن ينشغل عن
الدنيا كلها بخفقان قلبه وحرقان خياله . . وأن ينشغل عن ملايين الناس
بواحدة . . أو بواحد . . واحد فقط يملأ دنياها ويفيض إلى آخرتها
أيضاً . واسمه الحب . .

لقد أعجبني هذا الحوار بين اثنين من الأصدقاء فى المشهد الأول
للفصل الأول من مسرحية الأديب الإيطالى كارلو سالينى التى عنوانها
(حاضرون غائبون) :

- ما الذى أخجلك ؟

- إننى صغير .

- هل تستطيع أن تبلغ المائة سنة الآن ؟

- لا .

- إذن لماذا تخجل ؟ هل شىء آخر ينجلك ؟

- نعم . إن العمدة قد تزوج البنت التى أحببتها !

- بل هو الذى يجب أن ينجل وهل كانت تحبك ؟

- نعم .

- فماذا حدث ؟

- أمها اختارت لها العمدة . .

- هل يمكن عمل شىء ؟

- لا

- إذن لماذا ننجل ؟

- لأننى عاجز عن فعل شىء !

- إن الكسيح لا ينجل لأنه لا يستطيع أن يفوز فى سباق الجرى .

والطائر بلا جناحين لا ينجل لأنه لا يستطيع أن يفوز فى سباق الجرى .

والطائر بلا جناحين لا ينجل لأنه لا يبلغ السحاب . . إنه ينشد

المستحيل !

- ويخجلنى أننى أسود الوجه . .

- هل تستطيع أن تكون أشقر الوجه أحمر الشعر أزرق العينين تتكلم

الألمانية بطلاقة ؟

- لا . .

- فما دمت لا تستطيع فما الذى ينجلك . . ثم إنك لست عاجزاً . لأن

العاجز هو الذى يستطيع أن يبلغ النهاية ثم لا يبدل جهداً أكبر . ولكنك

لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة حتى لو أردت . فأنت يجب ألا

تخجل . . وإنما الخجل للقادرين ، وأما العاجزون فلا خجل لهم !

- وأبى مات مخموراً !

- هل ينجلك ذلك ؟

- نعم .

- فهل كان بوسعك أن تمنعه من شرب الخمر التي أدمنها عشرين عامًا قبل مولدك ؟

- لا . .

- أمك هي التي يجب أن تحجل فقد كان في استطاعتها . . وكذلك أعمامك وأخوالك . . هل كان في استطاعتك أن تضع ماء النار في زجاجة والدك ؟ هل كان في استطاعتك أن تكون أخا لوالدك لكي تمنعه ؟

- لا طبعاً . .

- إذن يجب ألا تحجل . . وهل أبوك ينجعل منك ؟

- فعلاً هو الذى ينجعل منى . . فقد لاحظت ذلك في عينيه . . لأنه يملك الإرادة ، ولكنه عاجز عن اتخاذ القرار . . إنه الصغير أمامى . . إنه العاجز عن رد حكى عليه بأنه سكير عرييد . .

- هل شئ آخر ينجلك ؟

- إننى أحب واحدة أخرى . .

- بالضبط هذا ما لا تحجل منه ! فلا ينجلك من أحب !

- بل أنجلك منه . . فأنت لا تعرف من هي التي أحبها . . إننى احتقر زوجها ومكانته وثروته وقدرته . .

- أنت تحجل من حبك لها ولا تحجل من كراهيتك له وحقدك عليه ؟ أنت ياسيدى لا تعرف ما الذى يجعل الإنسان ينجلك وما الذى يجعله يشعر بالعار !!

إن قصص الحب أصبحت غريبة في حشود الكراهية . . إن دمة على عين المحب والمحبيب تمسحها أمطار الحقد والغل والتربص . . والمعركة قديمة . . ولكنها تتجدد في حياة كل يوم . . بل كل لحظة . . ولا تلتفت إليها العيون والأذان لأنها ليست دموية ولا صارخة !

وكان المفكر الإنجليزى كارليل يقول : إن سقوط شجرة في الغابة يحدث دويًا هائلًا . . ولكن الفراشات التى تنقل حبوب اللقاح من زهرة إلى زهرة ، ليس لها صوت . . إنها تمد الحياة في صمت وجمال وروعة !

وقد سجل لنا الكتاب المقدس في السفر الثامن من (العهد القديم) أروع قصص الحب والشوق والحزن والكبرياء والإبساء . . جاء ذلك شاعريًا في سفر (نشيد الإنشاد) في ١١٧ بيتًا أو عبارة أو لحنا . . فالكلام شاعري . . ولأنه عميق بديع فقد وضعوه ضمن الكتاب المقدس . . وبعد أن وضعوه راحوا يفسرونه صوفيًا ورمزيًا وأدبيًا . .

وقالوا ليس هذا الشعر العاطفى الجنسى إلا رمزًا لحب السماء وعشقها للأرض . .

وقالوا : بل هذا شعر تغنى به الملك سليمان . .

وقالوا : بل هى أغنيات الأفراس والليالى الملاح في سوريا . . وكان من عادتهم أن يتحدثوا إلى العريس الجالس على عرش زوجته الجميلة على أنه ملك وهى ملكة . .

وقالوا : إن الملك سليمان تزوج راعية غنم اسمها شوليت . . ولكن شوليت كانت تحب راعيا . وظلت تتغنى به ونحن إليه . . حتى أطلق الملك سليمان سراحها . .

فهو قد استولى على جسمها . . أما قلبها فكان لها وكان مشغولا براعى الغنم .

وهذه القصة الرائعة هى انتصار للحب على القوة . . انتصار للراعى على الملك . . إنها أقوى احتجاج ثورى فردى في التاريخ . . أعظم وأروع . وقد ذهب الملك والعرش ، وبقي الحب !

ففى سفر (نشيد الإنشاد) . .

الراعى يقول : جميلة حبيبتى . . عيناك حمامتان . . هى : جميل

أنت . . يا حبيبي أنت حلو . . وسريرنا أخضر . .

هو : كالسوسن بين الأشواك كذلك حبيبتى بين البنات . .

هى : كالنفاحة بين الشجر حبيبي . . وكذلك هو بين الرجال . .
تحت ظلك انتهيت أن أجلس . . وثمرته حلوة لخلقى . . اسندونى
بأفراص الزبيب . . انعشونى بالنفاحة فإننى مريضة حبا . . شماله تحت
رأسى ويمينه يعانقنى . . أحلفكن يابنات أو رسلهم بالظباء وأياثل الحقول
ألا توقظن حبيبي . . ألا تنبهن حبيبي حتى يشاء . .

هو : قومى يا حبيبتى ويا جميلتى تعالى . . المطر مر وزال . الزهور
ظهرت . قومى يا حبيبتى . أرينى وجهك وأسمعنى صوتك . . لأن
صوتك لطيف ووجهك جميل . .

هى : حبيبي لى وأنا لحبيبي . . الراعى بين السوسن لى أن يتضح
النهار ويتهزم الظلام . . بحثت عن الذى تحبه نفسى فما وجدته .
استحلفكن يابنات أو رسلهم ألا تنبهن حبيبي حتى يشاء . .

هو : عيناك حمامتان من تحت نقابك . . شعرك مثل قطع رابض على
الجلجل . . شفتاك قرمز . وفمك حلو . . خدك نصف رمانة . . عنقك
برج داود .

هى : يا جميل يا حبيبي ليس فيك عيب . شفتاك قطران شهدا . تحت
لسانك عسل ولبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان . أنا نائمة وقلبي
مستيقظ . . نفسى خرجت عندما ذهب . . حبيبي أبيض وأحمر . . رأسه
ذهب . . شعره أسود كالغراب . خداه جميلتا الطيب . . شفتاه
سوسن . . بطنه عاج أبيض تغلف بالياقوت الأزرق . . ساقاه عمودا رخام
على قاعدتين من إبريز . . حلقة مثل لبنان . . فتى كأشجار الأرز . كله
مشتهيات . . أنا لحبيبي وحبيبي لى . .

هو : قامتك نخيل . ثدياك عنقودا الكرم . .

هى : اجعلنى كخاتم على قلبك . . كخاتم على ساعدك . . المحبة
قوية كالموت . . الغيرة قاسية كالهوية . .

وكل عبارات (نشيد الإنشاد) مثل حبات اللؤلؤ . . كل واحدة إلى
جوار الأخرى . . فليس فى هذا النشيد من أوله لآخره حرف (واو)
العطف فى النص القديم . .

وهذا النشيد هو أروع وأعمق ما عرف التاريخ القديم .
والمعنى : إن العرش والقوة والمال تشتري جسماً جميلاً . . ولكنها لا
تشتري قلباً . . ولذلك فالملك سليمان أعاد الفتاة شوليت إلى حبيبها
الراعى . . وانتصر الحب . . وانكسرت القوة والتاج والعرش . .

ويعد ذلك بألف سنة تكررت نفس المأساة التى هى أعظم تحية للحب
وأكبر هزيمة للقوة . . فالخليفة معاوية بن أبى سفيان تزوج فتاة بدوية .
ولكن الفتاة واسمها (ميسون بنت حميد بن بجدل الكلية) لم تحب
الخليفة لحظة واحدة . . وإن كانت قد حملت وولدت . . وإنما بقيت على
حبها لابن عمها . وعلى الرغم من أن الخليفة قد أسكنها قصرًا ، وابن
عمها لا يملك إلا خيمة . . فإنها ظلت تبكى ابن عمها والخيمة . تفضل
لقمة العيش مع ابن عمها على الرغبة مع الخليفة ، وتفضل بناح الكلاب
على دقائق الدفوف . . وتفضل الملابس الخشنة على حرير الخليفة . . وقد
سمعها معاوية تقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه
أحب إلى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني
أحب إلى من لبس الشفوف
وأكل كسيرة فى كسر بيتي
أحب إلى من أكل الرغبة

وكلب ينبع الأضياف دوني
أحب إلى من هز الدفوف !

فقال لها معاوية : ما رضيت يا ابنة جندل بما أعطيناك فعودي إلى
أهلك !

فعدت إلى قبيلتها سعيدة بحريتها وحبها لابن عمها !

* * *

والذين كتبوا ألف ليلة بعد ذلك بستة قرون لم يفهموا أن الخيانة من
الممكن أن تكون بالقلب .

(فالف ليلة وليلة) تبدأ بأن الملك شهريار قرر أن يزور أخاه الملك شاه
زمان . . وقبل سفره اكتشف أن زوجته خانت مع أحد العبيد . .
وحزن الأخوان . .

ولم تقل لنا (ألف ليلة وليلة) إن كانت الملكة خائنة ، لأنها لم تحب
الملك . . أو إن كان الملك قد أكرهها على الزواج منه . . وهل لو اكتشف
الملك أنها (تحب) رجلاً آخر ، دون أن تعاشره ، كان يغفر لها ثم يعيدها
إلى المحبوب ، كما فعل الملك سليمان ومعاوية بن أبي سفيان . .

ولكن مؤلفي (ألف ليلة) جعلوا الخيانة جسمية . . وكان لابد أن
تلقى الخائنة عقاباً جسدياً أيضاً . . فقتل كل ملك زوجته والعبد الأسود
الذي استولى عليها . .

وفي يوم أحس الأخوان بهزة أرضية وارتفاع عمود من الدخان . فهربا
معا فوق إحدى الأشجار . . وفجأة ظهر عفريت . . والعفريت معه
صندوق صغير . ولما فتحه خرجت فتاة جميلة . قال لها العفريت . ياسيدة
الحرائر . . دعيني أسند رأسي إلى ساقك وأنا مع بعض الوقت !

ونام على ساقها ولما رأت الرجلين فى أعلى الشجرة طلبت إليهما أن ينزلا وأن يقتريا . . ثم أخرجت من ملابسها ٧٥٠ خاتما . . وقالت لهما : كل رجل استسلمت له أخذت منه خاتما ؟

وقال الأخوان الملكان : إذا كانت المرأة تستطيع أن تخدع العفريت . فكيف لا تخدع الإنسان ، وهو أضعف من العفريت ؟

وعاد الملك شهريار يتزوج كل ليلة واحدة ويقتلها . . فقتل ألف امرأة . . حتى لم تبقى عذراء واحدة فى مملكته . . فتقدمت واحدة اسمها شهرزاد تحكى له كل يوم حكاية . . فحكى له ١٢٠ قصة فى ألف ليلة وليلة . . وهكذا جاء الأدب فأنقذ ألف امرأة من الموت . . ولم نعرف فى كل التاريخ أن حكايات لامرأة قد أنقذت هذا العدد من النساء . . ثم إنها عاجلت الملك من مرض الانتقام والتعطش إلى الدم فاكتمى بها وأنجب منها أطفالا . .

وبعد ذلك بثلاثة قرون انتشرت الرومانسية فى أوروبا ، كما انتشرت قبل ذلك فى بلاد العرب (الحب العذرى) والحب العفيف . . والموت فى سبيل المحبوب . وكان الحب نوعا من الجهاد ، جهاد النفس والجسد والقبيلة . وكان الموت فى سبيل الحب العفيف اسمى درجات الاستشهاد .

وكان الشعراء عندنا وفى الغرب يتعذبون من أجل نظرة واحدة من عيني المحبوبة . . كان المحب هو الحياة . وكانت المحبوبة هى القضاء والقدر . . وكان كل شيء يهون من أجلها . . وكان العذاب فى سبيلها شرفا ومجدا . . وكل الطرق تؤدى إلى قلبها . . قريبا منه أو بعيدا عنه . .

ثم ازدهت الدنيا وامتلات بكل شيء مادی . . بيع وشراء . . تجارة ودعارة وسياسة . . حتى توارى الحب . . وانكمش القلب وتضخمت المعدة . . وأصبح الحب غريبا . . والمحبون شواذ . . وأصبح الناس

يُحجّلون من أنهم يحبون . . يُحجّلون من أنهم يسهرون ويأرقون ويقلقون من أجل المحبوبة . . وصارت الأغنيات رقصا ، وصار الرقص شعرا . وصار الحب مرضا يتمنون منه الشفاء !

ولو تساءلنا عن عشرين كتابا صدرت في القرن العشرين ، وكيف أنها واجهت السلوك الإنساني بعيدا وقريبا عن المحبوب ولماذا ؟ فلن نذكر من هذه الكتب ما ألفه في الأربعينات العالم النفسى الأمريكى الفرد كيني عن السلوك الإنسانى رجلا وامرأة فى الحب والكراهية . . السلوك السوى والسلوك الشاذ . . ولن نذكر أيضا ما ألفته الباحثة شيرهايت عن سلوك المرأة وسلوك الرجل . . فلم يعد أحد ينشغل كثيرا بأن أحدا أحب ، وإنما بأن أحدا يزداد كراهية وحقدا . . ولم يعد أحد ينظم الحب شعرا . . بل إن عشرات الشعراء ينظمون الكراهية شعرا ومنشورات وبرامج أحزاب سياسية واقتصادية . .

لقد كان القمر ملكا على عرش السماء . . صار القمر محطة للتزود بالوقود بين الأرض والكواكب الأخرى ! .

إن كنت قد نسيت دعنى أذكرك بالمسلسلات التليفزيونية الأمريكية . دالاس ودوينستى وكوليز . . إنها أحد أنواع السلوك الإنسانى ولكن فى أروع صورة . . إنها الحقارة والندالة والحيوانية بأجل الألوان . . وأجل الممثلات والممثلين وبمئات ملايين الجنيهات . . إنهم يصبون الوحل فى أكواب الكريستال الأنيقة ذات الوميض يأخذ بالعقول . . إنها دعوة مفتوحة لكل إنسان أن يكون منحطاً حقيراً دنيئاً . . فالذى هو حب فى هذه المسلسلات هو الحب ، وقد اتخذ شكلا كاريكاتوريا للسخرية بإنسانية الإنسان . .

لقد أعدوا كل شيء جميلا بديعا ساحرا لكى يستسلم الحب . . ولكى يزفوه كل يوم ملكا مخلوعا . . وكائنا منقرضا . . وخجلا يتجدد وعارا لا

ينتهى . . انتقاماً من كل من تسول له نفسه أن يكون إنساناً !

ومهما تعددت المصايد الجميلة ومهما تطورت وتحورت أساليب الدمار الإنسانى . . فسوف يبقى هذا الشعور الشخصى النبيل . . وسوف يكافأ المحبون على عواطفهم بأنهم ملوك . . وأن عروشهم لا تنزل . . فمن الممكن أن يكون العاشق جالساً على الأرض وظهره للحائط ولا يملك قوت يومه . . ولا يقوى على أن يدعو المحبوبة إلى ساندوتش فول . . ولكنه بالحب ملك الملوك . . وبالقلب أعظم الكائنات . . وفى قلبه وفى عقله هذه القدرة الجبارة على أن يجعل الدنيا كلها كرة صغيرة عند قدميه يدوسها من أجل المحبوبة . . أو يسحقها تراباً عند قدميها . . ولكن أحداً لا يصدق . . فليكن . . ولكن أحداً لا يراه ملكاً ولا يرى له عرشاً . فليكن إنه فى نفسه وفى وجدانه : أعظم الناس . . وإنه مريض حبا . وإن حبيته كلها مشتتات - كما يقول الكتاب المقدس . .

ويظل الحب هو الساحر الذهبى الوردى الذى يملأ الدنيا . ويفرغها . . والذى يجعل للمحبة فى كل خطوة سلامة وسلاماً وبركة . ولا يهمه كثيراً ماذا يقول الناس . ولا ماذا يقول علماء النفس فى معنى الحب . . إنه ليس مشغولاً بالمعنى وإنما هو مشغول بشعوره . .

علماء النفس يقولون : الحب هو احترام واعتياد واستمرار ورغبة فى التملك . . لا يهم فالحب مثل ذلك أو أكثر من ذلك . الحب هو الحب .

وقديماً قال الشاعر العاشق :

يقول أناس لو وصفت لنا الهوى

فوالله ما أدري الهوى كيف يوصف

ولما حاول شوقي أمير الشعراء أن يوضح المعنى قال عاجزاً عن التوضيح . .

(يقول أناس لو وصفت لنا الهوى)
لعل الذى لم يعرف الحب يعرف
فقللت لقد ذقت الهوى ثم ذقت
فوالله ما أدرى الهوى كيف يوصف !

فشوقى ليس الشاعر العاجز عن التعريف . . وليس الباحث العاجز
عن التوصيف . . وإنما هو العاشق الذى أحب . ولم يعرف ما هذا الذى
يعانيه أول مرة . . أو المرة الألف : فالحب هو الذى لا يوصف وهو الأبعد
عن كل وصف . . وهو الغريب المغترب فى هذا الزمان . . ولكنه الأعظم
احتراماً ، والأكثر إنسانية . . فالحيب هو الوثنى النبيل أحق الناس
باحترام الناس ، لأنه الدليل الوحيد على أن القلب أقوى والحب أبقى ! .

٥٠ عاما على العار والدمار في بيرل هاربور

من بلكونة في فندق على شاطئ مدينة بيرل هاربور جلس يتفرج على الأجسام الجميلة النائمة الناعمة على الرمال الحمراء تحت أشجار جوز الهند الخضراء . . فمن هؤلاء السعداء الذين طالت أجسامهم وتغير لون بشرتهم . . حتى عيون النساء قد استدارت . . لإنهم اليابانيون الذين يملكون هذه الفنادق . . إن هذا الجمال قد شجع صاحبنا الجالس في البلكونة على أن يملأ بطنه بالأناناس واللوذ والجوز والشاي المعطر وأن يتخفف من ملابسه . . كأنه يابانى ولا يهमे كثيرا هذه العلامات السوداء على الأرض تشير إلى أن عدوانا جويا قام به اليابانيون في ٧ ديسمبر سنة ١٩٤١ فأغرق البوارج الحربية وقتل ثلاثة آلاف أمريكى . . ففى هجوم مفاجئ استغرق بضع دقائق ، تحولت السفن الحربية إلى مقابر راسية في المحيط الهادئ . .

ولم يكن هذا الجالس في البكونة مستمتعا بما رأى سنة ١٩٥٩ إلا أنا . كائننى مليونير . . نصف عريان كما ولدتنى أمى مع بعض التعديلات التى يقتضيها ادعاء الثراء واللامبالاة . أما دهشتى فكانت عظيمة جدا . كيف

هذا ؟ الأمريكان يذكرون هذا اليوم الأسود في تاريخهم . واليابانيون لا يبالون . . الأمريكان احتفظوا بضباطهم الذين شاركوا في هذه المعركة يحكون للسياح ماذا حدث في ذلك اليوم . وكيف حدث . . يذكرونهم حتى لا ينسوا . . واليابانيون قد نسوا تمامًا !!

ولكن في ذلك اليوم من خمسين عاما كسبت اليابان معركة ، ولكنها خسرت الحرب نهائيًا . فبعد أربع سنوات ألقت عليها أمريكا القنابل الذرية في هيروشيما ونجازاكي . . وفي ذلك اليوم كسبت أمريكا الحرب ولكن قررت اليابان أن تكسب الاقتصاديين الأمريكي والعالمي أيضًا .

والهزيمة الأمريكية واضحة في المتاحف ، ولكن النصر الياباني يتمدد جليلاً ساحراً على الشواطئ !

فكيف وقعت معركة العار والدمار في التاريخ الأمريكي ؟ لقد كان الهجوم مفاجئًا تمامًا . ولكن اليابان إستعدت له وخططته في سرية تامة . فقد حركت أساطيلها الأقوى . وحاملات طائراتها الأكثر عددًا في سرية كاملة ومن أماكن مختلفة دون أن يدرك ذلك أحد من الأمريكان . وقبل يوم الغزو أرسلت اليابان جاسوسًا لها يرى ويصور ويسجل ويبعث بمواقع السفن الأمريكية ويصف الحياة اليومية للجنود والضباط والقادة . وذهب الجاسوس . وتفرج على السفن العائمة كالأوز . . لا حراسة ولا رقابة . ولا سأل أحد . ولا تشكك في اقترايه الشديد . . لقد ذهب إلى مدينة بيرل هاربور بجواز سفر دبلوماسي . ثم ركب طائرة صغيرة وطار فوق الأسطول تمامًا كما فعلت أنا والمرحوم أحمد يوسف كبير مصوري أخبار اليوم . وربما كانت نفس الطائرة . . وراحت الطائرة تعلق بنا وتهبط فوق الميناء ثم اتجهت مباشرة إلى أحد البراكين التي انفجرت . . وطرنا فوق البركان . وعدنا . وكانت بيرل هاربور يوم العدوان ، بركانا من النار والفضيحة . ولم يحدث أن أهين الشعب الأمريكي كما أهين في ذلك اليوم . . بل إن الإهانات التي توالى بعد ذلك كانت أهون كثيرًا . . فهزيمة أمريكا في

كوريا كان سببها نقص المعلومات . . وهزيمتها في فيتنام كانت بسبب الغرور والعنطزة . ولكن في بيرل هاربور كانت لهذين السببين معا : لا عندها معلومات ولا عندها أى شك في قدرتها وضعف اليابان . .

ولكن استطاعت إحدى المجندات في المخابرات الحربية أن تفك شفرة الرسائل اليابانية . . ونقلت إلى رئيسها سيلا من المعلومات عن تحركات اليابانيين . . ولكن كان مصير هذه المعلومات : سلة الزبالاة . . فقد قال رئيسها : لا معنى لكل ذلك !

ثم مضى في حلاقة ذقنه . .

وبعث السفير الأمريكى فى طوكيو بأن هجوماً يابانيا وشيك . . ولكن هذه الرسالة اعتبرتها الخارجية الأمريكية هذيانا لسفير لايفيك من الخمر !

وفى يوم ٦ ديسمبر من خمسين عاما تحركت الأساطيل اليابانية فى ظروف جوية صعبة . . وقد أطفأت الأنوار تماما . وأغلقت كل أجهزة اللاسلكى . وفى الضباب والسحاب مضت الأساطيل وحاملات الطائرات . . وعند الفجر أيقظوا الطيارين . وعرفوا المهمة . وأصيبوا بالدهول . فلم يتصور يابانى واحد أنه يمكن ضرب الأمريكان . ولا أن تكون الضربة مفاجئة . ولكن قائد الأسطول اليابانى (ياماموتو) الذى تخرج فى الجامعات الأمريكية وعرفه زملاؤه بأنه مقامر وأنه أحب القمار لأنه يكسب منه كثيرا ، قال لهم : إن النصر مؤكد !

وأسرع الضباط والجنود فقصوا أظافرهم وخصلات من شعورهم لكى يبعثوا بها إلى أقاربهم فقد لا يعودون من هذه المعركة . . كما إنهم خلصوا أغطية الرأس ووضعوها فى ظروف إلى زوجاتهم وأولادهم . .

وفى نفس الوقت ضبعت المخابرات الأمريكية رسالة إلى السفير اليابانى فى واشنطن تطلب إليه إحراق كل ما لديه من مستندات . ولما عرضت الرسالة على الرئيس روزفلت قال : إذن هى الحرب !

وكانت الطائرات اليابانية فوق الميناء . . وكل شيء تحتها هادئ . قد
أعد تماما ليكون ضحية الطائرات اليابانية . . وهبطت الطائرات وألقت
القنابل وألف طوربيد . . واحترق الأسطول الأمريكي دون مقاومة .
وبعد ذلك بساعة عادت الطائرات اليابانية لتقتضى على ما تبقى من
الأسطول . .

أما الأمريكيان فقد ظنوا أول الأمر أنها تدريبات عسكرية . . فقد كانت
السفن خالية تمامًا من الجنود والضباط . . أما القادة فيلعبون الجولف .

وفي محطة الرادار البريطانية بالجزيرة رأى الضابط النوبتجي حشدًا من
الطائرات على شبكة الرادار لم يره من قبل . . ففيل له إنها الطائرات
الأمريكية قادمة من كاليفورنيا . . وقال القادة الأمريكيان : ولكن الوزارة لم
تقل لنا باشتراك الطائرات السوفيتية في المناورات !

والتقطت المخابرات الأمريكية رسالة شكر إلى الجاسوس الموجود في
الميناء تقول : براؤوا ! لقد كان عملك رائعًا !
وبعد أيام ألقى القبض عليه . .

وعندما نقلت الأنباء إلى أمريكا كان الشعب الأمريكي غارقًا في
المسلسلات الإذاعية . . وأصابه نفس الذهول الذي أصابه يوم اغتيال
الرئيس لنكولن سنة ١٨٩١ . وأحس الشعب الأمريكي بأن العدوان غدر
ياباني !

ولا أعرف لماذا هو غدر ، فما الذي كان يتوقعه الأمريكيان في الحرب ١٩
إن هتلر فعل ما هو أسوأ من ذلك ولم يره الأمريكيان غدرًا — ربما اغتفروا
لهتلر ذلك لأنه أوروبي أبيض ، أما الصفر الآسيويون فلا حق لهم في
الانتقام أو الغدر . .

ونحن هنا في مصر وجدنا في العدوان المفاجئ علينا سنة ١٩٦٧
وهزيمتنا بيرل هاربور أخرى . . بل أحسنا بشيء من الارتياح . فإن كنا

قد انهزمنا فجأة ، فأمريكا أيضًا - إذن لقد حدث ذلك من قبل في أعظم
وأغنى العائلات في العالم (١٩) .

أما الرئيس روزفلت فقد وصف الغزو الياباني بأنه بارع ومخطط علميا
وبمنتهى الدقة !

ويقول اليابانيون إنهم استخدموا طريقة (الماموتو) - أى الطريقة
الشيطنانية . أى التخطيط والدراسة والصبر والاحتراز ثم الهجوم
الصاعق . وهى نفس الطريقة التى استخدمها اليابانيون قبل ذلك سنة
١٩٠٤ عندما هاجموا الأسطول الروسى وحولوه إلى كتل فحم عائمة . . ثم
غارقة بعد ذلك . . ومن الصدف أن يكون أحد الجنود الذين اشتركوا فى
إغراق الأسطول الروسى هو نفسه قائد الأسطول اليابانى الذى أباد
الأسطول الأمريكى - إنه الأميرال ياماموتو .

وفى حديث له قال : إنها مرة واحدة فى التاريخ يمكن هزيمة أمريكا .
وبعد ذلك ليكن ما يكون !

لقد كانت سنة ١٩٤١ فى أوروبا وإفريقيا مروعة المقدمات والنتائج .
فهتلر أصبح قائدًا عاما لقواته . . وروميل كان بارعًا فى تحركاته وفى
انسحابه من إفريقيا وزاد العداء لليهود فى أوروبا ففرض عليهم هتلر أن
يضعوا نجمة داود صفراء على صدورهم وفى قلبها كلمة : يهودى . .

وأعلن هتلر وموسوليني الحرب على أمريكا . .

وأعلنت أمريكا وبريطانيا الحرب على اليابان . .

ووقع فى الأسر مائة ألف إيطالى . .

وكان أول هجوم روسى على برلين . .

ودخلت القوات البريطانية طهران . .

وأعلن دييجول قيام حكومة فى المنفى . .

وخسرت أمريكا في مأساة (بيرل هاربور) ٢٣٣٠ قتيلاً و ١٣٤٧ جريحاً . . وثماني بوارج وعشر سفن و ١٨٨ طائرة .
وخسرت اليابان ٦٤ قتيلاً و ٢٩ طائرة وخمس غواصات . .

وطبيعى ألا يشعر أحد بوفاة الأديب الإيرلندى جيمس جويس والهندي طاغور وغرق الأديبة الإنجليزية فرجيتسنيا وولف والفيلسوف الفرنسى برجسون والموسيقيار البولندى بادروفسكى . . وأن تحصل المثلة الألمانية مارلين دتريش على الجنسية الأمريكية وأن تظهر أعمال بارزة في الفكر المعاصر مثل (وجع القلب) ، للشاعر الفرنسى أراجون (سقوط باريس) للكاتب الروسى ابرنورج و (انشودة برنادت) للأديب النمساوى فرانزس فرفل ومسرحية (الأم شجاعة) للأديب الألماني برشت وكتاب (التاريخ قصة الحرية) للفيلسوف الإيطالى بندتو كروتشة . . وأن يقوم المثال البريطانى العالمى هنرى مور برسم لوحات للحياة في المخايء تحت أرض لندن . .

ولسوء حظ اليابان كانت كل حاملات الطائرات الأمريكية في عرض المحيط جاهزة للانتقام في أى وقت !

وبعد الهزيمة بعشرين يوماً ذهب الزعيم البريطانى تشرشل إلى البرلمان الأمريكى وألقى خطاباً تاريخياً . . أعلن فيه لأول مرة أن أمه أمريكية . وقد صفق له الأعضاء طويلاً ، كأن هذا الاعتراف قد عوضهم عن عار بيرل هاربور . . ثم رفع تشرشل يده بعلامة النصر التى أصبحت تقليداً منذ ذلك اليوم !

ولا تزال هذه المعركة ومقدماتها لغزاً يحير المؤرخين . وكل يوم تظهر كتب باجتهادات جديدة . من بين هذه الاجتهادات أن تشرشل كان يعلم عن هذا العدوان . ولكنه لم يشأ أن يفصح عنه حتى تدخل أمريكا الحرب . فقد عرفت المخابرات البريطانية مقدمات الغزو عن طريق

اختراقها للشفرتين السحرية والدبلوماسية . . وأرسلت معلوماتها إلى تشرشل الذى جمع رجاله وعرضها عليهم سعيًا بذلك . .

وتقول مذكرات طبيب تشرشل د . موران إن تشرشل هو أحد المصابين بالإمساك المزمن مثل الإسكندر الأكبر ونابليون وأيزنهاور . وإنه كان من عادته أنه يتطوع بعلاج كل أصدقائه . حتى في حضور الأطباء . وإن معظم قرارات تشرشل قد اتخذت في دورة المياه لأنه يجلس فيها طويلاً يقرأ ويكتب وعندما علم بالعدوان على (بيرل هاربور) رقص تشرشل وزال عنه الإمساك دون أية عقاقير . .

وأشار إلى من حوله بكأس من الويسكى وكوب كبير من القهوة . ورفضت السكرتيرة إلا نصف الكوب ، تماماً كالشعب البريطانى . وشكرها على أنها قد نهته إلى ذلك . . ثم طلب منهم أن يتركوه ينام في عمق . فإن النشوة التى أصابته لا يمكن أن يقاومها بل كان ينتظرها من وقت طويل . . ثم التفت إلى مساعديه : إننى سوف احتفل بدخول أمريكا الحرب في أحلامى السعيدة !

ودخل ونام سبع ساعات . لكى يصحو على ما توقعه من أخبار . لقد أعلنت أمريكا الحرب على اليابان . .

وكان الساسة الأمريكان قد زهقوا من الحروب الأوروبية . . وقرروا أن تعود أمريكا إلى عزلتها عن مصائب أوروبا . ولكن قرار دخول الحرب ضد اليابان هو قرار بدخول أمريكا كل صراعات آسيا . . ومن يومها وهى غارقة في المشاكل حتى سحبت قواتها من الفلبين إلى موقع آخر في آسيا وقبل ذلك دخولها حرب الخليج ورعايتها لمفاوضات السلام ومساندتها لجورباتشوف مرة ويلتسين مرة وقلقها من الوحدة الأوروبية ضدها ، ومن العملة اليابانية في كل الأسواق وتمدد سياحها على الرمال الذهبية والمياه الفضية في ميناء بيرل هاربور ووضعهم النظارات السوداء على عيونهم حتى

لا يروا آثار الحرائق على المنشآت العسكرية في الميناء ، ولكن حتى يراها
الأمريكان فلا ينسوا .

ولكن الأمريكيان إذا نسوا انتصارهم العسكري على اليابان فكيف
ينسون هزيمتهم الاقتصادية وتغلغل اليابان في كل الشركات الأمريكية
وشراء الجزر والمصانع في القارات الخمس . . وتهديدهم لكل الصناعات
الأمريكية . . ثم قدرتهم الفذة على تغطية العجز الأمريكي في الميزان
التجاري رغم الحماية المستمرة للسلع الأمريكية ١٩

ولا يزال الجرح الأمريكي يتزف حتى اليوم . . فقد طلب الأمريكيان إلى
اليابانيين أن يعتدروا عن هذا العدوان . فاعتدروا . فقد ساعدتهم أمريكا
على النهضة الصناعية .

وجاءت قوات أمريكية تدافع عنهم (١٩) وتمنعهم في نفس الوقت أن
يكون لهم جيش . وغيرت دستورهم حتى لا ينص على أن الإمبراطور
إله . . وأنه صاحب الأمر والنهي . لأنه هو الذي أمر بالحرب . فكان أمره
مقدسًا . ونص الدستور على أن يكون لأى يابانى أى دين أو أكثر في نفس
الوقت . حتى لا يحتكر الإمبراطور الدين والعبادة ، ولذلك فاليابانى من
حقه أن يكتب في جواز السفر أنه مسيحي تاوى - أو كوفوشى أو بوذى
أى له أكثر من دين . ولكن اليابانيين أعادوا بالتدريج كل ما كانوا يؤمنون
به . . وفي مقدمة معتقداتهم : الملك إله الشمس . . وتغيرت معالم الحياة
اليابانية . . فلم تعد المرأة اليابانية تحمل طفلها على ظهرها . فإذا حملته
فإنه يلف ساقيه حولها . ولذلك كانت السيقان معوجة . وكان لابد من
تقويمها بارتداء الكيمونو الضيق الذى يشد الساقين الملتوييتين إلى
الداخل . . ثم إن الطعام قد تغير فزادوا طولاً وعرضاً وتغيرت ألوانهم
ولكن هذه التغيرات ظاهرية فقط . فقد تمسك اليابانى بمعتقداته وأسواره
الصناعية والتكنولوجية وتفوقه في أسواق أوروبا وأمريكا . وليست الوحدة

الأوروبية إلا محاولة للسوقوف في وجه اليابان وأمريكا معا . والأثر الوحيد الذى تركه الأمريكان في اليابان هو لعبة البيسى بول - فهي اللعبة الشعبية الأولى في اليابان أيضًا !

أما في أمريكا فقد سقطت قلوبهم في أرجلهم ونكسوا كبرياءهم ودفعوا حكومتهم إلى الثأر . وكان واجب العلماء الأمريكان أن يجدوا حلا فريداً . وقد سارع العلماء إلى تحقيق حلمهم الكبير بصناعة القنبلة الذرية . وصنعوها . وبعض العلماء عارض هذه الجريمة العلمية . ولكن الشعب الأمريكى كان أقوى من العلماء . وكانت الرغبة في الانتقام هى كل الغرائز الأمريكية . . بل هى التى جعلت الشعب الأمريكى يعيش تجربة التقشف وهو البلد الغنى . ولم يكن غريباً أن تصدر نقابة الحياطين قراراً بأن تكون الملابس قصيرة وأن تكون البدل بصف زواير واحد - فلا قماش ولا زواير .

أما الباقي فقد قامت به المرأة من تلقاء نفسها . فالنساء قد استخدمن البنجر المسلوق في طلاء الشفاة . . واستخدمن الهباب في رسم الخواجب والعين . . أما الرجال فأطلقوا لحاهم فقد انعدمت أمواس الخلاقة . واكتفوا بالاستحمام بلا صابون - وكل ذلك يهون مادامت الدولة سوف تنتقم . .

وبعد خمسين عاما من الصداقة الأمريكية اليابانية والمحاولات المستمرة لنسيان ما حدث طلب الأمريكان إلى الرئيس بوش أن يعتذر هو الآخر عن ضرب اليابان بالقنابل الذرية - وكانت السيدة مارجريت تاتشر في أول زيارة لتشكوسلوفاكيا بعد تحريرها من السيطرة السوفيتية قد اعتذرت عن موقف بريطانيا أثناء الحرب . .

ولكن بوش قال : أنا ؟ أنا اعتذر ؟ لا يمكن أن يعتذر هذا الرئيس الأمريكى . لقد حاربت وأسقطوا طائرتى فوق جزيرة شيشو جيا في البحر . وكدت أغرق لولا أن أنقذتنى إحدى الغواصات . . إننى أتذكر ما

حدث في كل مرة أرى الرسميين اليابانيين . أنا أعترف وقد رأيت زملائي يطيطرون في الهوار نصفين . . زملائي في الطائرة وفي الغرفة . مستحيل أن أعترف . وإن كنا أصدقاء الآن ويجب أن ننسى !

واليابانيون يضايقهم أن يتحدث عنهم الأمريكيان فيقولوا : يايس . أى اليابانيين - اختصاراً للكلمة الإنجليزية . . أو يقولوا : نيبس . اختصاراً للكلمة اليابانية . . ويضايقهم جداً أن يتحدث عنهم الكتاب عندما يتذكرون مأساة بيرل هاربور فيقولوا : نحن ننهزم من هؤلاء الأقزام الصفر ذوي الأسنان المسوسة . . أكلة الجمبرى حيا والبصل مسلوقا والعيون تنظر في كل اتجاه ، وأصحاب الابتسامات التي لا معنى لها .

وعلى الرغم من أن الأمريكيان قد تدخلوا في الكتب المدرسية وغيروا التاريخ . فإن كتب التاريخ اليابانية إذا ما تحدثت عن العدوان على الصين فتقول ووصلت قواتنا إلى الصين . .

وعندما يتحدثون عن ضرب بيرل هاربور يقولون : وحلقت طائراتنا فوق الأسطول الأمريكي . . وعندما يتحدثون عن الاحتلال الأمريكي لبلادهم يقولون : الوجود الأمريكي بيننا . .

وعندما يتحدثون عن ضرورة نسيان ما حدث تقول الكتب : من الصعب حذف اسم بيرل هاربور من التاريخ . . وقد فشلت المحاولة اليابانية في ذلك !

فكل محاولة لكي ينسى اليابانيون ذلك مستحيلة - ولن ينسى الأمريكيان أيضًا . . وإذا كانت اليابان بلا جيش ، فقد توجهت بشبابها إلى المصانع ووفرت نفقات التسليح وتغيير السلاح - تمامًا كما فعلت ألمانيا . حتى صارت ألمانيا أقوى دولة صناعية في العالم ، واليابان أيضًا . . فهناك عبقرية إبداعية لا يمكن هزيمتها !

وفي كتاب للأديب الياباني أورى اكيوكو عن بيرل هاربور بعنوان (كان

يا ماسكان) يدور فيه هذا الحوار بين اثنين جالسين في بلكونة أحد فنادق بيرل هاربور . وقد حرص المؤلف على ألا يكون لهما أى اسم . كأنه يريد أن يقول إنها يمثلان الشعب اليابانى كله ، ولا أحد يعرف إن كان الاثنان يابانيين أو أمريكيين أو أحدهما يابانيا والآخر ألمانيا . . . إنها اثنان ينظران إلى المحيط الهادئ في ليلة قمرية ويتحدثان أو يتناجيان أو يتباكيان . .

- هه . . انتهى كل شيء ؟

- لم ينته شيء . فكل شيء يبدأ من جديد . . ولكن بصورة أخرى . .

- تقصد أن الحرب الاقتصادية هي استئناف للحروب السياسية والعسكرية . .

- أقصد أن هناك ألف بيرل هاربور في هذه الدنيا . . وأن المعركة معلنة والأسلحة معلنة ولكن أحدا لا يعترف بذلك .

- نحن إذن في حالة حرب ؟

- هذه الحرب من أجل كبرياء شعب وليست من أجل غطرسة حاكم أو غرور حزب سياسى . .

- كأنك تقول إن الشعب الأمريكى كله قد انهزم في بيرل هاربور والشعب اليابانى كله قد انتصر . .

- بل انهزمت أمريكا أيضا في هيروشىما ونجازاكى . . فلم نكن نعرف أن الرجل الأبيض متوحش إلى هذه الدرجة . . وقد انتقمت الشعوب الصفراء والسوداء من أمريكا مما جعل الشيوعية هي الحل في الدنيا كلها . وإذا كان الشعب اليابانى قد أصيب حتى الموت . . فإن الشعوب الأمريكية والأوروبية قد توارت خجلا من بشاعة ما حدث !

- إذن لا أمل في النسيان ؟

- لا يصح أن يكون عندنا أمل في النسيان . . فالأمل والنسيان

متناقضان . . كيف ننسى ما حدث . . وكيف يكون عندنا أمل في
القضاء على الماضي . . كيف تأمل اليوم في إعدام الأمس شنقا ١٩ إن آلهة
الإغريق قد عجزوا عن ذلك . . وهم يحاولون أن يجعلونا ننسى أننا قدسنا
الإمبراطور . . وأنا عبدناه لأنه جمع صفوفنا ووحدها على النهضة والتطور
والتفوق . . إنه من السهل جدًا أن نقول ذلك . . هل نذكر القصة التي
حفظناها ونحن أطفال عن جندي ذهب إلى الجبهة . . ولكنه لم يستطع أن
يحمل سلاحا لأنه نسي أنه مقطوع الذراعين . . كيف ينسى عجزه
وعاره . . لقد تذكر النصر ونسى عجزه عن ذلك . . فلما ذهب إلى الجبهة
كان قد نسي ذراعيه . . ولكن بعد أن عاد إلى البيت وجد ابنه الصغير
يحمل سلاحا . . فطلب الرجل إلى أهله أن يقطعوا ساقيه أيضًا حتى لا
يتحول بين الناس صورة من الأمل الفاشل والكبرياء المهيب . . لن ننسى
ياسيدي!

- ولكنني نسيت .

- أنت ؟ أنت تحاول أن تنسى أنك نسيت . . أنت تتذكر . . انظر إلى
الصور التي علقتها على جدران بيتك . . أبوك الذي مات وأمك التي
احترقت . . وأختك التي اختنقت . .

- إذن لأى شيء جئنا هنا .

- هنا بالذات . . في أحد فنادق بيرل هاربور ؟ . . لكى نضع لوحات
قائمة السواد يتوسطها شلال من الدم وسط جبال من الأشلاء . . ثم نضع
لها إطارًا جميلًا . . فالصورة مروعة والبرواز رائع !

شالوم عليكم أيها العرب وسلام علينا أيها المصريون !

فلنعد إلى الاهتمام بحالنا نحن ، فقد كان اهتمامنا بفلسطين خمسين عاما . . . وانشغلنا عن قضايانا . . . والفلسطينيون بعد أن صافحوا وعانقوا ودارت المحاورات بالعبرية : شالوم . . . شكالوم . . . عليكم فإنهم تلامذة اليهود المتضوقون ، قادرون على إكمال المفاوضات وفي صميم الأرض المحتلة . . . بين إخوتهم وأشقائهم وهتافاتهم . . . وتصفيقهم . . . وسوف يوزعون الشربات ويذيعون الأغنية الخالدة التي أذاعوها يوم اغتيال السادات ويوم ضرب العراق للسعودية والكويت . . . أغنية أم كلثوم : افرح ياقلبي !

ولن تكون هناك مشكلة من أى نوع بين وفود فلسطين وسوريا وإسرائيل . . . فهم يعرفون تماما ما يريدون - أقصد ما يريده اليهود . ولذلك يجب أن ننصرف نحن إلى حالنا وإلى مشاكلنا فنحن حققنا السلام بالكرامة ونريد أن نكمله بالرفاهية .

وأولى مشاكلنا هى مشكلة الأمة . . . نصف شعبنا جاهل . . . جاهل فى الاستهلاك جاهل فى الإنتاج . . . جاهل فى المبالغة فى خطورة القضايا

العربية التى ابتلعتنا وشربت وراونا ألوف ملايين الدولارات تنفق نصفها على السلاح والنصف الثانى تودعه فى البنوك اليهودية لينفق منه الفلسطينيون على الكباريات والراقصات والمخدرات والمتفجرات !

والمشكلة الثانية عندنا هى الأرض يجب ألا نخجل من أن الخبراء الإسرائيليين هم الذين ساعدونا على تطور صناعة الفاكهة والخضراوات التى ملأت الأسواق . . وساعدونا على استخدام الماء المالح فى تطوير زراعة الطماطم . . وإن طريقة الري الفرعونى هى سبب كل المصائب . ويجب أن نذهب فى تطوير الزراعة وتوزيع الأرض إلى مرحلة جديدة . فبدلاً من إعطاء الشاب خمسة أفدنة يبنى على نصفها بيتاً واصطبلاً وحديقة وحماماً ، فلنعطه عشرة أفدنة . . ولنشجع الشباب على المزارع التعاونية أو الجماعية . . أى إنهم يملكون الأرض ويتقاسمون عائدها . فقد تبذرت خيرات مصر من تفتت الملكيات الزراعية . .

والمشكلة الثالثة هى مشكلة هجرة العمال المصريين . لا اعترض على الهجرة . فكل مواطن حر فى أن يذهب إلى أى مكان بشرط أن يكون فى أعيننا - أى نرعاها ونهتم به ولا ندوخه السبع دوحات إذا أراد شهادة ميلاد لابنه . . أو توثيق عقد زواج . . إن المصريين يتلطمعون على أبواب السفارات والقنصليات - عيب علينا . وفضيحة لنا فى الخارج . ثم إن هناك نوعيات رديئة من المهاجرين الذين يدخلون البلاد الأجنبية سرا ومعظمهم يدخل ويبقى فى الشارع لينام كل عشرة فى غرفة - النمسا مثلاً .

أو يظلوا نائمين فى الزوارق يتاجرون فى العملة وفى غيرها ولا يدخلون هذه البلاد - اليونان مثلاً . .

وأذكر أنه دارت مناقشات فى إحدى جلسات مجلس الشورى عن عدد المصريين فى الخارج وتحدث رئيس المجلس ووزيرا الداخلية والخارجية .

ولم نعرف بالضبط كم يكون عدد المصريين . . هل هم مليونان ؟ هل هم ثلاثة ؟ هل هم خمسة ؟ .

أذكر أنى ذهبت إلى استراليا سنة ١٩٥٩ وكان عدد المصريين ثلاثة واحدة تزوجت جرسونا وواحد في السجن وأنا . . وذهبت إلى استراليا من عشر سنين وسألت كم عدد المصريين قالوا : نصف مليون . . وقالوا . ياشيخ لا . . لا . . ثلاثة أرباع المليون . . وقالوا : يا أخى فشارون . عددنا لا يزيد عن ٢٠٠ ألف في سيدنى ونصف هذا العدد في كانبرا وربع هذا العدد في بقية استراليا . .

ولكنى في مجلس الشورى انتهزت هذه الفرصة لكي اعتذر للامام أحمد آخر ملوك اليمن . فقد سألته في مؤتمر صحفى : يا طويل العمر كم يبلغ عدد سكان اليمن ؟

فاهتز في مقعده يمينا وشيالا طربا ومتحدثا بنعمة الله تعالى وقال : ما شاء الله ما بين خمسة ملايين وأربعين مليوناً !! وجعلتها مادة للفكاهة ولكن من الواجب أن اعتذر فوراً فنحن رغم كل أجهزة المحاسبة والتعداد واستخدام الكمبيوتر لا نعرف كم عدد المصريين في الخارج . . فهم ما شاء الله خمسة وخمسة ما بين مائتى ألف وخمسة ملايين !

والصورة المؤلمة التى تراها في شوارع فيينا وبقية المدن النمساوية توجع القلب . .

فيين الباعة السريحة في فيينا خربجو جامعات مصرية . . قابلت واحداً منهم في الطائرة قادماً من الكويت . . وقدم لى أوراقه فعرفت أنه خريج كلية العلوم « قسم الكيمياء » . .

ويفضل أن يسرح بالصحف في البرد وبين السيارات وأحياناً تحتها بدلا من أن يعود إلى القاهرة يكسب الملايم ويقترض الجنيهات ثم لا يعرف كيف يتزوج وإذا تزوج لا يستطيع أن يكون له أولاد وإذا كان له أولاد

فإنه لا يريد هم أن يسرحوا بالصحف يتسابقون في الموت : بالالتهاب
الرئوى أو تحت العجلات ا

والمشكلة الرابعة في مصر هى : الإدارة . . الإدارة . . أرجو تكرار هذه
الكلمة حتى نهاية الصفحة . فالإدارة في مصر جاهلة . والدولة جهاز
وكل جهاز له قواعد علمية لإدارته وصيانته من أجل الإنتاج الوفير أولا
وبعد ذلك الإنتاج الجيد . وبعد ذلك الإنتاج القادر على المنافسة في
الأسواق العالمية . . والغش التجارى من أهم سمات التاجر المصرى . ففى
مصر شركات متفوقة متطورة ومفخرة لمصر . . ولكنها قليلة . .

اخطف رجلك إلى المدن الجديدة وأنت ترى العجب . . فإذا أغمضت
عينيك عن الجلابيب التى فى الشوارع المرصوفة الضيقة (١٩) فسوف يخيّل
إليك أنك فى ألمانيا . . لكنها هذه المصانع الرائعة قليلة . والقليل وسط
الفوضى الكثيرة ، أقلية مسحوقة . . ولكن الغش هو أهم معالم التجارة
المصرية ، والصناعة المصرية والإدارة المصرية وأخلاقيات الصناعة والزراعة
والتسويق والتمويل والاستثمار . .

آه وصلنا إلى كلمة الاستثمار عن غير قصد . . أما الاستثمار فنحن لم
نتقدم فيه خطوة إلى الأمام فعندنا والله الحمد ألوف القواعد والقوانين التى
تجعل المصريين يهربون من بلادهم وعندى أمثلة كثيرة سمعتها بنفسى من
مصريين حولوا فلوسهم إلى وطنهم الغالى . ولكن الفلوس ليست كالحمام
الزاجل إذا ذهبت تعود ، وإنما مثل الغربان إذا ذهبت لا تعود . جاءوا إلى
مصر ونقلوا المصانع وحاولوا تشغيلها فامتدت الأيدي تطلب (المعلوم) .
والمعلوم رشوة . . يا الدفع ، يا الصدا - وصدئت المصانع وهرب المصريون
قبل أن تأكلهم البارومة التى هى البيروقراطية المصرية . .

ولا تزال صورة الكاتب المصرى (الجالس القرفصاء) هى صورة
الصناعة والزراعة والتجارة في مصر . كل شىء قاعد خامد أو كل شىء

واقف على حيله - مع أن من أكثر الكلمات شعبية في مصر هي .
ماشى . . ماشى . . ولا شيء يمشى إلا بطون المستثمرين والمخلصين من
المصريين !

ولا يزال المجتمع المصرى مجتمع فلاحين . . والفلاحة ليست شتيمة .
ولكنها مرحلة من مراحل التطور فى السلوكين الاجتماعى والعقلى . . وهى
المرحلة التى تسبق الصناعة فى سلم التطور الحضارى . فنحن فلاحون
نزرع ونقلع ونبيع ونشتري كالفلاحين . وإذا كانت المصطبة هى من رموز
الكسل والتنطع الريفى ، فإن المقاهى وغرز الحشيش وطواير الفلاحين
المهاجرين من الأرض إلى الهجرة أو العمل فى المدن ، هى أهم المعالم
الجديدة . . ولكن زراعة الأرض وربها وبذرها وتحصيلها : فرعونى
أصيل . .

فكما وصفنا عمرو بن العاص : نبذر الحب وننتظر الثمار من الرب .
أى نبذره بيد ونرفع اليد الأخرى إلى السماء نطلب من الله أن يعيد عنا
الدودة والعنكبوت ونسى الزراعة . كيف ؟ لقد تعودنا على ذلك من ألوف
السنين . . ثم ننام فى الغيظ ونترك لجاذبية الأرض أن تسحب الماء الحلو
وتنزل به إلى المصارف . . وبذلك نستهلك فى رى الفدان الواحد ما يكفى
لرى مائة ألف فدان فى إسرائيل التى تروى أرضها الخصبة جدًا بالقطارة .
قطرة عند كل ورقة وقطرتان عند كل شجرة - ويجب أن نتعلم ذلك
والرسول عليه الصلاة والسلام وهو ابن البادية الذى ليس عنده ماء وفير
ينصحن بالالاقتصاد فى الماء ولو كنا على شاطئ بحر - وهذه هى القاعدة
الأولى فى الاقتصاد والترشيد مهما كان ثراؤنا المائى . .

والمشكلة الخامسة يجب أن نتفق فيها بيننا : هل نريد الشباب أن يتعلم
فى الجامعة أو لا نريد ؟ وإذا كنا نريده فلماذا الأفلام والمسلسلات تضع
الفتاة أمام هذا الاختيار الصعب : بين رجلين . . هو كجامعى صغير

المرتب بلا شقة وبلا مستقبل واضح وبين واحد آخر من الطبقة الوسطى قادر على شراء السيارة والثلاجة والشقة والأكل والشرب وتشغيل أخوة العروسة وحج أمها وأبيها . الاختيار صعب وهذه الشابة تكون مغفلة إذا لم تتزوج نصف المتعلم كامل الثراء والمقدرة على إسعاد الجميع . .

فكأننا علمنا البنت والولد لنجعلهما يتدلمان معا على التعليم . وعلى أنهما لم يختصرا الطريق إلى الفلاحة والعمل اليدوى والبنات لمن رأى آخر . فالبنات تفضل الشاب الغنى القادر على أن يحمى ويسعد . . وباليته كان عجوزاً . أى يعيش له كام سنة وي بعدها يتوكل فتتزوج هى حبيب القلب المتعلم الكحيان نظرية !

ولكن يبقى الشعور بالندم : ندم الأبوين على أنهما أضاعا دم القلب على المدارس والدروس الخصوصية والجامعة والتبجعة : إن الابن غير قادر على الزواج والبنات كالبنت الوقف . . والحل السعيد عند الرجل الكسب . . وسوف يقال لها : ما قيمة الشهادة . . الرجل يساوى ما فى جيبه . . ولا يعيب الرجل إلا الجيب . . والشهادات أكثر من المهم على القلب . . وتوفيق الحكيم أعطى جائزة الدولة التقديرية لحفيد الفنان صلاح طاهر وقال هات له شوية تراب فى الورقة دى وجاء الطفل بالتراب . . وطلب إليه توفيق الحكيم أن يلقي بها فى الزبالة . .

فهذه الورقة لا تساوى وزنها تراباً . . لماذا لا تمنح الدولة مثل توفيق الحكيم مبلغاً من المال كالذى تعطيه للصلى لى يصلح حاله . . والذين من قبله رفضوا جائزة نوبل بفلوسها كانت حجتهم أن هذه الشهادة مثل طوق النجاة قد ألغوه للغريق عندما وصل إلى الشاطئ !!

وأخيراً من الذى قال إن الدولة بأجهزة الأمن قد قضت على المخدرات وأقفلت غرز الحشيش ! نحن الذين نقول ذلك . إذن ما اسم هذا المسرح المصرى : ما اسم هذه الأجسام العارية والألفاظ التى هى أكثر عرياً . وما

المعنى ؟ وما الهدف وما الرسالة ؟ المعنى : تهريج . والهدف : تسليية .
والرسالة : حششوا أعانكم الله !

والناس ليسوا في انتظار هذه التصيحة . فعندما تذهب إلى معظم هذه
المسارح فأنت أمام هذيان له شكل . . والشكل ليس مربعا ولا مدورا .
شكل والسلام . . أى له أول وله آخر . . وله حكاية تنتظر نهايتها
الراقصة . . لا بأس ولكن هذا الهذيان على المسرح ومقابله هذيان آخر من
المتفرجين . كأنها حفلة زار للأعصاب والخيال . . ويكون العرض
المسرحى مثل (جلسة) أو (قعدة) في غرزة حشيس . . يتعاطى فيها
الناس الحقن والبرشام ويشمون هواء أزرق يشيع الخدر والانتشاء .
ساعة . . ساعتين . . ثلاثا . . فإذا خرج الناس واصطدموا بالواقع أمام
باب المسرح . . تكون جلسة الحشيش في داخل المسرح قد عششت في
دماغهم تماما . . فكل كلمة أجوزة . . وكل جوزة ألف نفس يدخل
الدماغ فالعمود الفقري فالركبتين . . فالاسترخاء والراحة العصبية - لاشك
في ذلك . . ولو أن الذين يفرجون يعملون ويتعبون ، فمن حقهم أن
يستريحوا ولكن المصيبة أن أحدا لا يعمل . وإن متوسط ساعات العمل
اليومى لجميع العاملين في مصر - كما أعلن جهاز الإحصاء - ريع ساعة
يوميًا . . تصور أنت نعمل ريع ساعة نستريح فيها ٢٣ ساعة . بالذمة ما
اسم هذه العمل الذى نقوم به ، ثم نستريح منه يوما إلا ريع ساعة ؟

لا رواد الفضاء ولا الطيارون ولا الغواصون يلقون هذا التكريم العظيم
لما يقومون به من مجهودات على الحافة بين الموت خنقا والموت حرقا !

وما دام شاغلنا الأول هو ماذا نأكل وأين نصرف مخلصاتنا ، في الأرض أو
في البحر أو في الجو ، فنحن بدائيون . . حتى لو وضعنا الأكل في علب
وحتى لو جعلنا الصرف الصحى بالكومبيوتر . . فهذه اهتمامات حيوانية
غريزية . . القلط والكلاب تتصرف أحسن منا . . فإذا لم يكن عندك

كلب فانزل إلى الشارع واتفرج على أساتذتنا الكلاب كيف . . وكيف
يوارى . . ولم يدخل مدرسة ولا جامعة !

هذا إذا وجدنا في أن ننظر عبر حدودنا إلى ما تفعله أقلية الأقلية في
المقارنات الخمس . . . أخيرًا جدًا . . .

* * *

يجب أن ننظر وراءنا في غضب - فقد أضعنا المال والوقت والطاقة
والكرامة . . وأن ننظر أمامنا في أمل . . هناك أمل . بشرط أن يكون هناك
علم . . علوم . . خطة . : استراتيجية . . وكلها كلمات مكررة . . ولأنها
مكررة فقد تبدد معناها ونحن الذين كررنا المعاني حتى زهق منها
الناس . . بلاش النظر إلى إسرائيل . . انظر إلى الاتحاد السوفيتي وإلى دول
أوروبا الشرقية . . بلاش أوروبا الغربية واليابان وأمريكا . لأنه من
الأفضل أن ننظر على قدنا . . إلى الذين مثلنا . . الاتحاد السوفيتي دولة
عظمى وقعت . ولكنها سوف تقف . . فهي من أغنى دول العالم . ولكن
خبيثتها مثل خبيثتنا : سوء الإدارة . . أو إدارة الفلاحين للزرائب . أى
الإدارة غير العلمية . . ولكن سوف تقف روسيا أسرع منا . . وهي أسرع
منا عرفت الداء والدواء . . الداء : الفكر الجامد العقيم . . سيطرة
الحزب . . سيطرة أمراء الحزب وكوادر الحزب . . ووضع أفكار الناس في
قوالب مثل الجزم الصينية التى تلبسها الفتيات حتى توقف نمو أقدامهن
لأن الأقدام المحنقة من معالم الجمال . . وإن كانت الأفكار الصغيرة
المحنقة من معالم التخلف . . فهذه الأفكار الصغيرة الجامدة مثل
المسامير الذهبية على قبور الفراعنة .

ثم إن السوفيت الذين اخترعوا القطاع العام قد هدموه . .

ويجب أن نندم إلى غير حد لماذا نحن نتمسك بالقطاع العام .

لا أنسى مطلع قصيدة من الشعر الحلمتيشى للشاعر الغنائى مأمون

الشناوى عندما حار فى فهم مصر هل هى ماركسية هل هى رأسمالية .
والدهشة لا تزال قائمة - فقال : لا فف فوه أكتر من ذلك .

يا ترسملوننا يا تتركسوننا يلعن أبوكم على « ابونا » !

ونحن نستحق اللعنة لأننا سكنا على ذلك دون فهم ، أو دون
اعتراض أو احتجاج . . أو تكفير أو هجرة !

إلى الاتحاد السوفيتى يجب أن ننظر . . إلى عظمة الثورة والثائر . . إلى
التغير المروع الرافع . . والمروع هو الانهيار والرائع هو الاستجابة للثورة
والإصلاح والانفتاح والتنوير . . لقد طرد لينين الله وكتبه ورسله من
الاتحاد السوفيتى . . وقد أعادها جورباتشوف ، مع عظيم الاحترام إلى كل
المعابد والمساجد . ومعهم جميعاً وقبلهم : حرية الإنسان وكرامته . .
وتجديد قدرته على البناء والتطوير . . بهمة وصبر . .

فإن كان أحد يريد أن يتعلم فهذه هى الأمثلة والقذوة وإلا فسوف
يتحول العرب إلى هنود حمر فى الشرق الأوسط . . أما العدد فلا يهم . .
فقد استعمرت بريطانيا بعشرات الألوف من الجنود قارة الهند وعددها
بمئات الملايين . . إنه الكيف وليس الكم . . والكيف المكثف الواعى
النشط عبر حدودنا . .

لقد مضى زمان الاستعمار بالقوات المسلحة ، والاحتلال ، وإنما
الاستعمار الاقتصادى والسياسى والاجتماعى يبدأ من شاشات الكومبيوتر
فى البنوك والبورصة والمصانع فيما وراء البحار . . فالعالم يتحرك كله كما
تتحرك سفن الفضاء . . من قواعد فى أماكن مختلفة . . وكل شىء يحركونه
ويحكمون فيه عن بعد . . نعم عن بعد . . فى نيويورك ولندن وباريس
وتل أبيب !

وهذه بديهية فى الاقتصاد السياسى أو الجغرافيا السياسية أو ما بعد
البروسترويك . . فإذا لم تستوعب هذه الحقيقة أيضاً : فلله يازمى . .

وليس غريباً أن أزر وأطبل فالزمر والطبل (عاهة) مصرية . . ومن
قال إن فرقة حسب الله قد اندثرت . . أبداً وحياتك . . إنها عريقة
عميقة . . إن حسب الله المزيكاتى هو الاسم الحركى للمهيسة المصرية
التي تطبل لمن ذهب وتزمر لمن جاء . . فللجنازة طبل وللفرح زمر . . وإن
لم تكن هذه حفلات حقيقية فهي لإحياء للذكرى حسب الله المزيكاتى الذى
لا أحد يعرف له مكاناً عاش فيه أو دفن فيه ، ولكننا قروننا بإجماع شعبى
ساحق أن ندفنه فى آذاننا وفى عيوننا .

ووسط الطبل والزمر ضاعت الحقيقة وهى أننا فى حاجة إلى إصلاح
شديد ، وتطهير عنيف ووقف نمو حسب الله المزيكاتى . ١١ .

يقلعون الأشجار ويزرعون المسامير..!

(١)

لولا أن عددًا من الخواجات وقف يتفرج مندهشًا لما فعله هؤلاء الأطفال ، ما وقفت أنا أيضًا أرى وأندهش وألعن . . لقد كان للمنظر مذاق الفضيحة . أما الأطفال فقد راحوا بغيظ ينزعون أغصان إحدى الأشجار ثم يلقون بها في النيل . انتهى المنظر . وجاء رجل لم يعجبه هذا المنظر أمام الخواجات فنزع غصنًا من الشجرة وراح يضرب الأطفال ويطاردهم . . وليؤكد غضبه هو الآخر فإنه ألقي الغصن في الأرض وراح يدوسه ويلعن الأرض التي أنبتت مثل هؤلاء الأطفال . وحتى لا يتهمه الخواجات بالقذارة فإنه جمع حطام الغصن وألقى به في النيل . . بالقرب من جثة حمار عائم تمشي وراءه جنازة من أوراق ورد النيل . هذه اللوحة الحية المتحركة لم تكن في حاجة إلى من يوقع عليها بامضائه . يكفي أن يقال إنها صنعت في مصر !

أما الذي يمكن أن نفهمه من هذا العمل الجماعي فهو أن الأطفال أعداء الحياة ، والكبار أيضًا . وليس غريبًا أن يكون هذا سلوكًا عامًا مع

النبات والحيوان والزهور والورد والقسط والكلاب . فأعظم آثار مصر في كل العصور : الأهرامات . . إنها أروع وأبدع مقابر اخترعها الفراعنة ! .

(٢)

هناك حديث نبوى معناه : حتى إذا قامت القيامة ، ازرع شجرة !
أى حتى لو لم تكن لهذه الشجرة فائدة . . حتى لو لم يجلس أحد في ظلها أو يأكل ثمرها ، فازرع شجرة . المهم أن تفعل شيئاً نافعاً . . أن تكون إيجابياً . أن تجعل الحياة تمتد .

المهم هو أن تبدأ العمل الإيجابى الذى من الممكن أن ينفع أحداً !
وهناك حديث آخر يقول : حتى إذا كنت تتوضأ من البحر فاقتصد في الماء ! .

أى حتى لو كان الماء كثيراً جداً ، فيجب أن تكون معقولاً في استخدامه . . فالمبدأ هو ترشيد الاستهلاك !

وحديث يقول : تصدقوا ولو ببلحة !
أى يجب أن يتصدق الإنسان بأى شىء ، مهما كان صغيراً .
فالمبدأ هو أن يتصدق !

فإذا لم يجد ما يتصدق به بالكلمة الطيبة : صدقة !
فلا بد من الصدقة المادية أو المعنوية !

حتى في زحام يوم القيامة والخوف والقلق والرعب ، يجب ألا تنسى أن تتوقف لحظة وتغرس في الأرض شجرة دون أن تفكر في فائدتها . . وإنما فقط في أن تتوقف لحظة . وفي هذه اللحظة تقرر أن تكون للحياة دورة . ولو كانت هذه حياة شجرة . . فلو فعل كل الناس ذلك لتحول يوم القيامة إلى يوم قيامة الأشجار والثمار - إن هذه الصورة أروع من الصورة

الإغريقية لرمز الإصرار والتحدى . . صورة الفتى سيزيف الذى حكمت عليه الآفة بأن يدفع حجراً أمامه إلى أعلى الجبل . فلا يكاد يصل إلى القمة حتى يسقط فيعود الفتى سيزيف ويرفعه إلى الأبد . . وكان سيزيف البطل يفعل ذلك وهو يعلم أنه لا فائدة من أن يدفعه لأنه سوف يسقط . . ولكنه كان يفعل ذلك بحماس كأن هناك فائدة . . كأن هناك أملاً في أن يتوقف . . إنه مصر على أن يفعل بإرادته . . أى كأنه يريد ذلك ، مع أن آفة الإغريق قرروا عذابه . . فهو يفعل بإصرار وإرادة كأنه اختار هذا النوع من العذاب ! .

والفرق بين الصورتين أنه في يوم القيامة يوم الفزع الأكبر يجب أن نتوقف عن الفزع لحظة . وفي هذه اللحظة نقرر فيما بيننا أنها إذا كانت هذه هى نهاية حياة الإنسان ، فليست نهاية حياة النبات . . وإنه لا تزال هناك إرادة وقدرة وابتكار . . وإن الإنسان لم يمّت تماماً . . لم يمته . . وإنه لا يزال هناك أمل في شيء ما !

(٣)

وفي الجنة كانت الشجرة . . وكانت السبب في أن آدم وحواء قد هبطا إلى الأرض . خطيئة آدم أنه أكل من الشجرة المحرمة التى حرمها الله ونهاه عنها . يقول آدم إن حواء هى التى أغرت به بذلك . . وتقول حواء : إنها الحية . . وتقول الحية : إنه الشيطان الذى تسلل إلى بطنها وتحدث من فيها . لقد أخطأ آدم وكان لابد أن يهبط هو وزوجته إلى الأرض . ولم يكذب آدم عليه السلام يأكل من ثمار الشجرة وهى شجرة الخلد المخصصة للملائكة فقط ، حتى أحس أنه عريان . فتوارى في بطن إحدى الأشجار . فلما ناداه ربه وطلب إليه أن يخرج من الشجرة قال إنه يستحي . . وبعد ذلك بدأت اعترافات آدم بغلطته .

أما بقية صورة آدم طويلاً وعرضاً فيرويه المورخ الإسلامى الكبير أبو

جعفر محمد بن جرير الطبري . يقول إن جبريل عليه السلام قد أعطى آدم كل بذور الجنة . . كلها حتى يزرع لنفسه جنة على الأرض ، وأعطاه عصا موسى وطولها عشرة أمتار في مثل طول موسى عليه السلام . وأعطاه الحجر الأسود . .

وأعطاه جبريل كل أنواع البذور بذور لها قشور مثل الجوز واللوز والفسق والبندق والخشخاش والبلوط والرمان والموز . . وبذور لثمار لها نوى مثل الخوخ والمشمش والنبق والعناب . . وبذور لثمار ليس لها قشور أو نوى مثل التفاح والسمرجل والكمثرى والعنب والتوت والتين والخروب والخيار والبطيخ .

ثم أعطاه جبريل سبع حبات من القمح . وزن الحبة الواحدة مائة كيلو جرام . ولابد أن يكون آدم ضخماً طويلاً عريضاً لكي يكون قادراً على أن يحمل كل هذه البذور في يد أو يدين . . يقول الطبري إن آدم عليه السلام كان يضرب السماء برأسه . ولذلك أصيب بالصلع . وتوارث أبناؤه الصلع ، أما الجبال كله فقد كان من نصيب واحد من أحفاده هو يوسف عليه السلام . .

وعندما نزل آدم إلى الأرض فقد وضع قدما في بلاد الهند والأخرى في بلاد العرب . . وكانت الخطوة الواحدة تقطعها الخيول في أيام . .

وقد وصف لنا ابن بطوطة موطيء قدم أبينا آدم في جزيرة سيري لانكا . . وقد رأيت أنا هذا المكان في سنة ١٩٥٩ . ففي سيري لانكا جبل اسمه « قمة آدم » وعند قمة هذا الجبل توجد بحيرة . هذه البحيرة هي عبارة عن منخفض من الأرض له شكل قدم ضخمة - يقولون إنها قدم آدم عليه السلام .

وجبريل علم آدم كيف يبذر القمح وكيف يحصد ثم كيف يعجنه . ثم أتى له بحجر وقطعة من الحديد وضربها فتطاير الشرر وأقام آدم فرناً وعجن الدقيق وخبز الخبز . .

والمعنى أن جبريل قد علم آدم كيف يعيش . . وكيف يزرع لنفسه جنة أخرى على الأرض . .

ولم يبهط آدم إلى الأرض حزينا واضعا يده على خده مكتفيا بها في الأرض من غابات وثمار . . وإنما طلب إليه ربه أن يعمل وبعث إليه بمن يعلمه كيف يعمل وكيف يأكل وكيف يزرع الحياة . . وكيف يكون هو الحياة التي تزرع الحياة ! .

وقد ترددت كلمة : زراعة البذور ألوف المرات في قصة حياة أبينا آدم . .

أما كيف تحولت كلمة (ازرع) عندنا نحن المصريين ، على أنها : اقلع واقطع . . واخلع . . واقتل . . واقتطف بها في النيل لتكون جثة عائمة فذلك ما يحتاج إلى أن نفهمه - فذلك من أخطر أخطاء الترجمة ! !

فالذين لا يجردون الأشجار ليقطعوها أو يقلعوها فإنهم يفعلون شيئا مدمرا آخر . . فكل واحد يفتش في بيته بإصرار وهمة ونشاط كأنه يبحث عن كنز . .

يبحث عن مسبار . . لكي يسحبه على كل السيارات الواقفة في الشارع . . فإذا لم يجد السيارات فإنه يمر به على الجدران والأبواب . .

أو ذلك الذي يبحث في كل مكان في البيت عن موس حلاقة ويقف أمام المرأة . . بعد أن يكون الموس قد استقر في جيبه الداخلى . . أما الذي أوقفه أمام المرأة فهو شيء آخر . . إنه يريد أن يطمش على الصورة الجميلة التي سوف يكون عليها عندما يذهب إلى السينما ويجلس ويمد يده إلى أعماق جيبه ويخرج الموس ليمزق المقعد الجلدى الجميل المريح الذى يجلس عليه . . ولو كان هذا المقعد يسهل نقله . . لحمله كما يحمل الأطفال أغصان الشجر وألقى به في البحر . أما لماذا يرتفع صدره عاليا هكذا فلأنه قد استراح إلى ما فعل . . أدى الواجب في تخريب شيء ما . لماذا إنها

غريزة التدمير. وهل التدمير غريزة؟ نعم غريزة كالبناء والزراعة والصناعة .

ولم نكن نعرف قبل عالم النفس فرويد أن البقاء غريزة وأن الفناء غريزة أيضاً . . فكما يحرص الإنسان على أن يعيش ، يحرص أيضاً على أن يموت . .

فالذى يقتل شجرة ، يتدرب على قتل الحياة ، حياة قط أو كلب أو إنسان . . أو يقتل نفسه أيضاً !

قال لى صاحب سينما جديدة : فكر معى . . أريد أن أفهم لماذا يحرص إنسان بكامل قواه العقلية على أن يبحث عن موس أو سكين ويخفيه فى جيبه لكى يمزق المقعد الذى استراح عليه . . هل لو كان المقعد من الخشب وفيه مسامير كان يحطمه . . أو هل كان يرضى بأن يمزق المقعد ملابسه وينفذ إلى جلده . . هل كان من الواجب أن أقوم بمهمة تمزيق ملابسه وجلده . . هل هو يعاقبنى على ذلك . . يعاقبنى على احترامى له . . وحرصى على راحته هو وغيره . .

لماذا كل من رأى حائطاً أبيض يلقى عليه الطين ؟ . . أو يكتب عليه ألفاظاً نابية ؟ لماذا يضرب صناديق الزبالة حتى يسقط كل ما فيها فى الشارع ؟ لماذا إذا ذهب الطالب إلى المكتبة العامة ، فإنه يمزق الكتب أو يقطع أوراقها أو يسرق منها الصور التى لا يستفيد منها ؟ لماذا إذا ذهب أحد إلى معرض من المعارض فإنه يخرج قلم الحبر من جيبه ويلقى به على اللوحات ؟ وإذا رأى عشرون رجلاً أن الأسانسير لا يقوى إلا على الارتفاع بعشرة أشخاص يصرون على أن يدخلوا جميعاً . . وسوف ينهض بهم الأسانسير ولكن هذا يقصف عمره . . فلماذا يحرص الناس على قصف عمر الأسانسير والتزام والأتوبيس والقطار ومقاعد السينما وأشجار الحدائق والأشجار فى الشوارع . . لماذا تزرع المسامير فى الشوارع لكى تنفجر عجلات السيارات ١٩ .

(٤)

إذا أردت أن تقرأ عن العجب العجائب فارجع إلى موسوعة في العادات والتقاليد القديمة والرموز الدينية في كتاب اسمه (الغصن الذهبي) للعالم الكبير فريزر .

سوف تجد أن الأشجار كانت معبودة . . قبل المسيحية . . وفي السنوات الأولى منها . وكيف أن كلمة (الغابة) مرادفة في اللغات الأوروبية القديمة لكلمة (المعبد) . وكيف أن الأباطرة كانوا يتعبدون كثيرا . . أى ينفردون بأنفسهم في وسط الغابات . .

وكيف أن القانون الألماني القديم كان يعاقب بالقتل من يقتل شجرة . . ثم خففوا الحكم إلى السجن وزراعة شجرة مثلها .

إما لماذا كانوا يضعون أكاليل الغار على رؤوس الأبطال ، فلأن الغار لا يصعبه الرعد والبرق . .

ثم كيف أن المسيحية في القرن الأول حرمت الغار لأنه رمز الغرور والغطرسة . . إن المؤمن يجب أن يكون متواضعا !

أما (شجرة الميلاد) فلا علاقة لها مطلقا بالديانة المسيحية . . وإنما هي عادات أوروبية منذ أيام الوثنية . . وقد نقلها إلى بريطانيا لأول مرة سنة ١٨٤٠ الأمير الألماني البرت الذي تزوج الملكة فكتوريا .

وعندنا في التاريخ الفرعوني أن الملك أوزوريس كان يرعى حياة النبات والثمار . . وإن له صورة تدل على أنه يرعى الحياة بعد الموت . . أو إنه على الرغم من موته فلا تزال أصابعه تشير إلى استمرار الحياة . . وله صورة معروفة في الآثار الإغريقية تقول إنه راعي القمح وكانوا يعتقدون أن الأشجار لها روح كالإنسان تماما . . وأن الشجرة ذات الثمار كالمرأة الحامل . . وأن الأشجار تسكنها أرواح الموتى . .

ولا نزال نعتقد نحن حديثاً أن أشجار الزينة في البيوت تغضب ويبدو عليها التأثير حسب حالاتنا النفسية . . ومع الموسيقى تنتعش وتشرق أوراقها وزهورها . .

وقد ثبت علمياً أن الأشجار لها لغة . . وأنها ترسل إشارات بعضها إلى بعض وأن هذه الإشارات الصوتية قد أمكن تسجيلها . . فإذا اقترب من الحديقة كلب أو إنسان أو جاءت فراشة ، فإن أقرب الأشجار إلى الزائر تنبه الأشجار الأخرى . هذه حقيقة علمية . . وأنها إذا قطعنا غصناً أو قطعنا ثمرة ، فإن الصورة الدقيقة التي التقطت تسجل لنا نوعاً من التزييف . . أو الدموع . .

وللرسول عليه السلام حديث معناه .

ترفقوا بخالاتكم النخل . .

أي ترفقوا بقطع النخيل . . كأنها خالاتنا أو أمهاتنا أو بناتنا . . كأنها كائن حي . . لأنها كائن حي !

وقبل المسيحية كان من الضروري أن نزرع في مدخل البيت أو مدخل المكتبة شجرة . هذه الشجرة مصدر الخير . أو ملتقى الأرواح الطيبة .

وكثير من الناس يطلب أن يكون قبره في ظل شجرة . وكثيراً ما رأى الناس موتاهم في أحلامهم يطلبون منهم العناية بالأشجار . ومن الطبيعي أن تبتسم إذا قال لك أحد أقاربك قبل أن يموت : أريد أنواعاً من الأشجار فوق قبري . . شجرة كذا أو شجرة كذا . ولا تتركها حتى تموت من العطش . . طبعي أن تبتسم . . فما الذي يشعر به من مات ١٩

وفي يوم رأيت أُمِّي في المنام ورأيت وجهها المضيء عاتباً . . ولم تقل شيئاً . ولم أفهم . وعادت في حلم آخر وقالت لي : إن الشجرة قد سقطت . .

وذهبت إلى قبرها . ووجدت الشجرة الكبيرة قد ماتت وسقطت . .
واقطلعها حارس المقبرة . وزرعت أشجاراً أخرى . وعادت أمى وقد ازداد
وجهها إشراقاً - يرحمها الله . .

وهناك عشرات القصص نسمعها من كل الناس عن الأشجار في
المقابر . .

وفي أمريكا يسألون الفقيد قبل أن يصبح فقيداً عن الموقع الذى يختاره
لقبره . . على بحيرة . . تحت شجرة أمام نافورة . . وعن نوع الموسيقى التى
يجب أن يعزفوها فى جنازته . . أو فى أيام الذكريات . .

وفي أوروبا اليوم : أنت لا تستطيع أن تقطع شجرة من أى مكان . .
وإذا قطعتها فالعقوبة شديدة .

وفي كل عاصمة أوروبية نجد شجرة كبيرة لم يستطع أحد قطعها - رغم
وجود ملايين الأشجار عندهم فى الغابات .

نجد شجرة فى قلب الميدان . . ونجدهم قد تركوها تنمو وتتفرع
ويوسعون الميدان لكى تمر السيارات بعيداً عنها . . رأيت شجرة فى
فيينا . . هذه الشجرة قد أقاموا لها بيتاً من الزجاج ولكن لم يفكر أحد ، ولن
يجزئ ، فى أن يقطعها ويزرع غيرها .

رأيت فى مدينة جراتس النمساوية فى حديقته الصغيرة أشجاراً وأمامها
أسماء الذين زرعوها . . والذين يتولون العناية بها . . ولو فرضنا أن زارع
هذه الشجرة ، فكر فى أن يقطع منها فرعاً لوجب عقابه . . فالشجرة لم
تعد ملكاً له . إنها ملك الدولة .

وقطع فرع من شجرة مثل قطع ذراع أى إنسان !

وإذا كانت عندك حديقة ، فلسست حراً فى قطع أية شجرة منها دون
إذن من الدولة . وإذا لم يسمحو لك ، فلن تزرعها . وإذا زرعت فلا بد أن

تحصل على موافقة بنوع الشجرة التى تزرعها !

لقد زرت مدينة براتسلافا منذ أيام . . إنها إحدى مدن تشيكوسلوفاكيا التى كانت شيوعية تعيسة ، وتحاول الآن أن تشم نفسها . . الشعب فقير مفهوم الفقر مختلف عن مفهومه عندنا . فالمواطن التشيكى يجد كل شىء . ثم إنه شعب صناعى من الدرجة الأولى . . ولكنه أفقر من الدول المجاورة له . . مثل ألمانيا والنمسا وسويسرا . . فهذا هو مفهوم الفقر عندهم . . ولكنه شعب متحضر . . مثلاً : الشوارع كلها مزروعة بالزهور والورد . . وتجد الناس واقفين طوابير يشترون الورد الغالى الثمن . ولكن أحداً لا يسرق وردة !؟

وأشجار الفواكه فى الشوارع ، ويذهب الناس لشراء الفاكهة بالواحدة من الفكهانى ، ولكن أحداً لا يمد يده إلى ثمرة من شجرة تملكها الدولة !؟
طبعاً نحن نسمع ونندهش لأننا نقارن بين ما يمكن أن يحدث فى مصر وأنت تعرف وأنا أعرف !

رأيت فى الهند المغطاة بالغابات أن للأشجار أرقاماً فى الطرق العامة .
تماماً كالسيارات أو كالبطاقات الشخصية . ولا أحد يقطع أو يقلع شجرة أما المعنى فليس من الصعب علينا أن ندركه ! .

(٥)

وهذه فزورة قد حيرت كاتبنا الكبير توفيق الحكيم . فقد لاحظ وهو جالس تحت شجرة فى حديقة المجلس الأعلى للفنون أن شجرة أخرى قد مدت فروعها من حديقة مجاورة . . إنها شجرة تفاح . وقد تدلى التفاح منها داخل المجلس الأعلى للفنون وتساءل الحكيم : ما حكم القانون فى الذى يقطف ثمرة من هذه الشجرة التى لا نملكها ؟

فأنا لم أتسلق سور الحديقة المجاورة وسرقت التفاحة . . وإني التفاحة

هى التى تسلفت حديقة المجلس ثم مدت ثمرتها إلى ما يقرب من فمى .
هى التى جاءت ولست أنا الذى ذهبت . . فهل قطفها يعتبر سرقة ؟ وهل
أنا إذا وجدت تفاحة قد قفزت إلى طبقى ثم قشرت نفسها بنفسها وقفزت
السكين وقطعت التفاحة إلى أربعة أجزاء . . وقفز واحد منها فى فمى ، هل
أكون لصا ؟

وجعل توفيق الحكيم هذه قضية جدلية . فى إحدى مسرحياته . . ولم
يصل إلى حل . . وسمعنا منه هذه القضية ولم نفكر فى أن نسأل أحداً من
رجال القانون . . وإنما وجدناها نكتة . . وإنما من نوادر توفيق الحكيم
وليست من مشكلات القانون !

أما القانون الألمانى المعاصر فقد بحث ووجد حلا . يقول القانون
الألمانى إذا شجرة تسلفت إلى حديقةك وألقت بظلالتها على الأرض
ومنعتك هذه الظلال من أن تزرع شيئاً . أى إن ضرراً قد لحق بك ، فمن
حقوقك أن تأكل ثمرتها .

ولكن إذا ألقت الشجرة ظلها ولم تؤد الظلال إلى ضرر ما ، فأنت لا
تستطيع أن تأكل ثمراتها دون إذن من أصحاب الشجرة . . أما قطع هذا
الغصن الذى تسلسل إليك فمستحيل تماماً حتى لو ألحق بك ضرراً !

فزورة أخرى رواها السياسى الإغريقى الكبير ديموستين . يقول إن
طبيباً استأجر حماراً ليسافر على ظهره من بلد إلى بلد . . وكان صاحب
الحمار يمشى وراءه . . وكان الجو حاراً والشمس حارة . فما كان من
الطبيب إلا أن أوقف الحمار ثم جلس فى ظل الحمار . وهنا ثار صاحب
الحمار يقول : نحن لم نتفق على ظل الحمار . . فقط أنت استأجرت الحمار
ولم تستأجر ظله . ولابد أن تدفع مبلغاً إضافياً . .

وكان الطبيب يقول : إن ظل الحمار تابع له . . فأنا استأجرت الحمار
وكل ملحقاته !

وتماسك الرجلان وهرب الحمار . وكان هروب الحمار حلا سعيدًا
ولكن هل من حق صاحب الحمار أن يتقاضى أجرًا على الظل ؟

وقد جاء الأديب السويسري ديرنيات وتناول هذه النكتة التاريخية في
تمثيلية إذاعية بعنوان (محاكمة حول ظل حمار) وقد ترجمتها الزميلة اسيا
جانو . وقد انتهز الكاتب الكبير ديرنيات هذه القضية العجيبة وسخر
من التقاليد والخرافات المدنية والأوضاع المعقدة بين صاحب الحمار
ومستأجر الحمار وانتهزها وأمعن في سخريته من القضاة والمحامين . وكيف
أن ظل الحمار قد اتسع وامتد حتى شمل الناس جميعا وفرق بينهم . .
فكل شيء له ظل . . فظل الجبال مثلا وظل السحاب مثلا كيف
نحاسب الناس على الاستفادة منهما . . وكيف نعوضهم عن الأضرار التي
تلحقهم ؟

واحترقت المدينة كلها . . وهرب الحمار وسط الحرائق وبين الشوارع
الضيقة حتى احترق شعره وتسليخ جلده وذهب إلى القاضي ليسأله : قل
لى ياسيادة القاضي هل تعتقد أنني الحمار الوحيد في هذه القضية ؟

(٦)

مسافة حضارية طويلة جدًا بين .

من يزرع شجرة ومن يقطع شجرة .

بين الذين يقدسون الأشجار وبين الذين يكسسون الأشجار .

إن بلادنا صحراوية . ومن الواجب أن نزرعها بالأشجار . في الأعياد .
نزرع شجرة . . في الإجازة نزرع شجرة . . يجب أن نحفل بكل مناسبة
قومية أو شخصية فنزرع شجرة . .

فنحن عندما نزرع شجرة ، فإننا نزرع في أنفسنا شيئًا أهم وأبقى من
الشجرة : حب الحياة حب الجمال - في وجه الصحراء التي هي ملايين من

ذرات ميتة ، فتتحدى الموت بالحياة . . بشجرة . . من لا يجد عملا
يجب أن نجعله يزرع شجرة . .

إن كثيرا من الدول ، رغم ما لديها من غابات ، فإنها قد أقامت
الحدائق للتضامن بين الشعوب . . للحب بين الشعوب . . للسلام
بينها . . وفي هذه الحدائق تحيى الوفود الرسمية ليزرع كل وفد شجرة .

ففى سنة ١٩٦٤ كنا فى كوبا ضمن المؤتمر الدولى للقارات الثلاث .
آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية . . وفى الليل والأمطار غزيرة تماسكت
أيدينا . . حبلا متينا . . ورحنا نرقص جميعا باسم الحب وباسم
التضامن . وزرعنا شجرة . . مع أن كوبا خضراء . . كلها خضراء تتخللها
بيوت حمراء . . ولكن لا نهاية لحب الحياة واستمرار الحياة والحرص عليها
والاستمتاع بها أيضا .

فليس حيا من لا يزرع الحياة . .

والرسول عليه السلام ينصحننا بأنه فى وجه الموت يجب أن نغرس
الحياة ! .

(١) هموم .. كلها هموم!

عندما ذهبت لألمانيا بعد الحرب مباشرة وجدت الدنيا الجميلة قد
انهارت على رؤوس أصحابها . . المدن خرائب . . المصانع أكوام من
الخرردة . . والناس في بعض ملابسهم . . والوجوه لونها الأحمر السوردي
والأحمر الدموي أصبحت درجات من اللون الأصفر والباهت والأزرق .
النفوس كسيرة والعيون حسيرة . . ماذا جرى لك يا أعظم البلاد .

ورأيت الشاب يقف واضعاً يديه في الجيوب أمام والده . . ورأيت من
تزوره في مكتبه يمد ساقيه في وجهك . . ورأيت بعض المديرين يمضغون
اللبن . . وكنت أرى في الوجوه والأدمغة والعيون كل الفلاسفة وعباقره
الموسيقى .

ووجدت في المطاعم ضوضاء . . وفي الحانات صخباً . . وإذا
أمسكت سيجارة في يدك اتجهت إليك العيون . . وإذا أخرجت قطعة
شيكولاته من جيبي خرجت لك من الأنفاس شقراوات الراين يطلبن
فتفتوته . هذه إذن ألمانيا بعد الحرب فأصابها الحرب ألمانيا وبريطانيا وفرنسا
وإيطاليا . انكسر شيء هام سقط وانهار .

ليست الهزيمة فقط هى التى أصابت كل الناس . . وإنما الهزائم فى الحرب وفى الحقل وفى المصنع وفى البيت وفى العقل وفى القلب . . فكل الناس كأنهم أسرى حرب . وكل الناس كأنهم ضحايا والناس ضائعون بين الذى كان وبين الذى هو كائن . . وبين الأمل فى العودة إلى الماضى أو الحرص على الحاضر واليأس من المستقبل . . أى مستقبل .

قال لى صديقى الأديب البرتو مورافيا ونحن نتحدث فى شقته الجميلة عن الذى أصاب روما بعد هزيمة الفاشية والنازية معا هل تذكر الفتاة ادريانا . . بطلّة روايتى « فتاة روما » . . إنها بالضبط صورة جميلة فاشلة نفسيًا مهزومة دينيًا ممزقة اجتماعيًا وهذه كل إيطاليا . . فإذا أردت أن تدرس ما حدث لكل الناس فأمامك ادريانا . . إنها ليست فتاة من روما . . إنها من روما وباريس وبرلين ونيويورك . . صدقتى .

وصدقته . فما الذى حدث فى العالم كله فى أعقاب الحروب ؟ ماذا جرى لنا فى القاهرة وفى بيروت وماذا جرى لهم فى إسرائيل أيضًا .

كان ياما كان فى سالف العصر والأوان ! الصديق والشجاعة والتضحية والمواجهة فأنا أحبك معناها أننى فعلا أحبك . . وأكرهك معناها أننى أعنى ذلك وأنت أخصى معناها أنك أخصى أو مثل أخصى وأقسم على ذلك . . والآن لا أنت أخصى ولا صديقى ولا زميل ولا حتى جارى . . فأنت هناك . . وأنت هنا . . انظر إليك ولا أراك وانجبه إليك ولا أسمعك . . ولا يعنينى أمرك لا كثيرًا ولا قليلًا . . فعندى مشاكل وعندك أيضًا . . ولا يهمنى كثيرًا ماذا أصابك . أنت فى حالك وأنا فى حالى . . وليس عندى وقت لك ولا عنك . . تغيرت الأشياء والناس والعلاقات . . ومعانى الحياة وطرق النجاح . . والحروب من هذه الحياة ! وإذا دخلت بيتا من البيوت فإنك تمجد البيت ساكنًا كان أحدًا لا يسكنه . والحقيقة أن فى كل غرفة واحدًا هذا الواحد يقرأ أو يكتب . . أو إنه نائم . . ولكن لا شأن له

بالأخوة في الغرف الأخرى . . إنهم معا في بيت واحد وليسوا معا . . وهذه من أهم صفات المجتمع الحديث : الناس كثيرون في كل مكان ولكن كل واحد وحده . . كأنه لا يشعر بالآخرين . . أو كأنه ينفض عن أعصابه كل الذي له علاقة بوجود الآخرين . . لا يريدهم كما إنهم لا يريدونه . ماذا جرى : ماذا طرأ ؟ منذ متى ؟

فكما إن الناس يختلفون في أشكالهم وألوانهم ولقائهم فهم كذلك في عاداتهم وتقاليدهم . والذي تراه المرأة الشرقية من الحشمة لا تراه الغربية كذلك . . فالمرأة الشرقية تستر وجهها . . والمرأة الغربية تسفر عنه . والرجال يغطون الرأس احتراماً وفي الغرب يرفعون القبعة احتراماً .

والهنود يكتفون برفع الكفين معا للتحية وفي الشرق العربي يرون ذلك ترفعا عن التحية . . وفي دول الخليج يقبلون الكتف والصدر والجبهة والأنف وفي بعض قبائل أواسط إفريقيا يبصقون على الوجه .

وعلى الرغم من أننا نعيش جميعا في القرن العشرين فإن شعوب العالم ليست على نفس الدرجة من التطورين الاجتماعى والصناعى فالمسافة بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين القبائل البدائية في حوض الأمازون أكثر من عشرين قرناً . . والمسافة بين اليابان وبين القبائل البدائية في جزر المحيط الهادى يمكن حسابها بعشرات القرون . . فالأمريكان والروس قد وصلوا إلى الكواكب الأخرى وفي الوقت نفسه هناك قبائل تعيش على السمك وعلى قطف الثمار من الغابات وعلى تعاويذ الساحر وعفاريت الغابة .

والإنسانية كلها قد مرت بمراحل حتى وصلت إلى ما هى عليه اليوم . فالإنسان الأول يعيش في الغابات يصيد الحيوانات ويقطف الثمار من الأشجار . . الأشجار لكل الناس والحيوانات التى يصيدها يجب أن يسارع بقتلها وأكلها قبل أن تأكله . . ولذلك فقد كان الإنسان يهاجم

الحيوانات . . فإذا قتلها أكلها بدمها فوراً قبل أن تهاجم الحيوانات وتأكله هو والفريسة ولابد أن الإنسان الأول كان يأكل ويخطف بسرعة تماماً كما تفعل الكلاب الضالة الآن . . فهو لا يعرف متى يأكل في المرة القادمة . . ولم يكن الإنسان في ذلك الوقت يحتاج إلا لقوة عضلاته وبعض الأدوات البدائية التي يقتل بها وكان يعيش في الكهف .

وقد لاحظ الفيلسوف الألماني « كنت » أن الطفل لم يكن يبكي في ذلك الوقت ولو بكى لأكلته الوحوش . . فقد اعتاد الأبوان أن يكتبيا صوت الطفل حتى لا تهتدى إليه الوحوش . . ولكن بعد أن أحس الإنسان بالأمسان لم يعد يعبأ كثيراً بأن يبكي الطفل أو يصرخ أو تبكى أمه أو تصرخ عند الولادة . . فلا خوف من أن يسمع أحد صوته ، بل إن الإنسان أصبح يشجع الطفل على البكاء لأن البكاء يقوى رثته وحباله الصوتية . . ثم إن البكاء يرهق الطفل فيجعله ينام . . ومن الناحية التربوية يجب ألا نستسلم لبكاء الطفل كوسيلة من وسائل الضغط علينا ليأكل ويشرب عندما يريد هو لا عندما نريد نحن ، وبذلك يعتاد على أن يطلب في أى وقت وعلى أن نجيبه إلى ما يريد .

وفي ذلك الوقت لم يكن للمرأة دور كبير في الحياة الاجتماعية ، وإنما الرجل يتركها وراءه في الكهف أو تحت الشجر . . أو فوق الشجر ترضع طفلها وتدافع عن نفسها حتى يعود لها .

وقد انتقلت الإنسانية من مرحلة صيد الحيوانات وقطف الثمار إلى مرحلة زراعة الأرض لا نعرف متى حدث ذلك . . ولكن انتقلنا إلى قطع أشجار الغابات وتسوية الأرض وزراعتها . . يرى بعض العلماء أن المرأة وقد تركها الرجل وراءه قد صنعت شيئين : البيت وزراعة الأرض . . فهي التي أقامت لنفسها الكوخ والبيت لحماية نفسها وطفلها أما الرجل فما يزال في حالة الصيد والقنص وليست أعمال العنف والمافيا والحروب إلا استمراراً لصورة الصيد والقتل ولكن بصورة أخرى .

والمرأة التى تركها الرجل وراءه ماثات ألوف السنين . . هى التى قطعت الأشجار لكى تفسح مكانا للبيت . . ثم سوت الأرض ونثرت البذور . . والمرأة هى صانعة البيت وحارثة الأرض .

وعندما انتقل الإنسان الصياد إلى الإنسان الفلاح لم يعد فى حاجة إلى أكثر من ذراع قوية وفاس . لا مؤهلات أكثر من ذلك . فالرجل القوى هو المثل الأعلى فى المجتمع الزراعى والإنسان الزراعى كان يبلغ الرجولة دون العشرين فى حاجة إلى شباب آخر يزرع ويحراث ويحصد . . ولذلك تزوج فى سن مبكرة وجاءت الأولاد ليساعده فى عمله . .

وإذا كان الخطف والجشع من صفات مجتمع العبيد فإن التعاون من صفات المجتمع الزراعى . فالأسرة هى نواة المجتمع . والأسرة عادة من أب وزوجة وكثير من الأولاد . ويجب أن يكونوا فى صحة جيدة ليقدروا على الزراعة . . والطفل الزراعى يولد فلاحا ليس فى حاجة إلى علوم أو فنون تؤهله لأن يكون فلاحا . وإنما إلى عضلات ومحراث . . ومن مظاهر الحياة الاجتماعية فى الريف : الأسرة . . العائلة . . العصب . . الدم الواحد . وكل عائلة لها كبير ومن القرية تتكون العائلات أو من العائلة .

وكما إن لكل فلاح أرضا وبيتا فله حرمة أيضا . والحرمة هى بيته وأولاده . . وهى شرفه وهى العفة . فالإنسان يجب أن يحرص على أرضه التى هى عرضه فالشرف والفضيلة والعفة هى من أهم الحدود والأسوار التى أقامها الإنسان الزراعى لنفسه وحول نفسه .

إننا لانعرف متى انتقلنا من حالة صيد الحيوانات إلى زراعة الأرض واستئناس الحيوانات لتكون خادمة فى الحقل ثم إننا لم نتقل من هذه الحالة إلى تلك الحالة بصورة نهائية . . فما يزال الكثيرون يعيشون وكأنهم فى عصر الصيد والقنص . . ونحن عندما نذهب إلى أحد مطاعم بيروت ونطلب « الكبيبة النيئة » أو نذهب إلى أحد المطاعم الأوروبية ونطلب أن تكون

اللحم بدمها فنحن ما نزال في عصر الصيد . أيام كنا نصيد الحيوانات ونأكلها بدمها . . فلم يكن الإنسان قد اخترع النار . . وحتى بعد أن اخترع النار فإنه بدلا من أن يضع اللحم فوقها فإنه يأكلها نيئة على ضوء النار . والشعب الياباني يأكل الجمبرى حيا والأسماك نيئة . . وبعض الشعوب الآسيوية والأفريقية تأكل منخ القروود وهو حى جالس تحت منضدة خرج منها رأسه .

ثم يتكونه بعد أن نزعوا غده باعتبارها وجبة ارستقراطية فادحة الثمن . لقد جربت ذلك في هونغ كونج في بيت أحد الأغنياء وندمت على ذلك ولا أزال . فالصورة لم تغادر عيني حتى عدلت عن أكل اللحوم نهائيا منذ ثلاثين عاما .

وكل الرذائل الآن كانت فضائل قبل ذلك . . فالجشع والطمع والخطف من أهم صفات الإنسان في عصر الصيد والقنص . . والبرم نراها رذائل والعنف والقسوة التي هي من فضائل الحرب نراها وحشية في زمن السلم . . ولو رأينا رجلا ينطلق في الشارع يمسك مدفعا رشاشا . . ولم نجد في الشارع أحدا لقلنا إنه مجنون . . لو عرفنا أن لصا هاجمه لوجدنا له العذر وقلنا ولكن ما ضرورة المدفع الرشاش ، ولكن إذا عرفنا أنه يطارد أحد جنود الأعداء الذي اعتدى على بيته وأسرته وهدد آخرين لوجدنا في هذا السلوك شجاعة وبطولة .

ومن أهم معالم البيت في المجتمع الزراعى الأسوار . . تفصل بين الأرض التي أملكها والتي تملكها أنت . . والأسوار بين بيتى وبيتك والأبواب المغلقة بينى وبينك . . والحرص على استقرار الأسرة . . الزوجة الواحدة أم الخلية . . ملكة الخلية والأولاد كلهم معا في بيت العائلة .

والمثل الأعلى في المجتمع الزراعى . . أن كل أسرة لها كبير وهذا الكبير هو مصدر السلطات هو الأمر الناهى هو الذى يقرر ويحكم ويعاقب وهو

الذى يملك والقرية لها كبير والمدينة لها كبير والدولة لها كبير والكون كله له كبير .

وكل عائلة تكفى نفسها بنفسها . . . هى التى تزرع وتطحن وتعجن وتخبز . . . هى تحمل وتدافع عن كل أفرادها . . . وهى التى تباهى بقوتها بما لديها من الأفراد وما لدى الأفراد من الأرض والأشجار والثمار والحيوانات .

وانتقل المجتمع كله من الزراعة إلى الصناعة . . . وتغيرت أساليب الحياة وتغيرت معها العادات والتقاليد والأخلاق والمثل العليا . . . فلم تعد الأسرة قادرة على إطعام نفسها أو حمايتها . . . وإذا كانت الأسرة تصنع أدواتها البدائية فقد ظهرت صناعات أكبر وأكثر تعقيدا . . . ظهرت المصانع فى أماكن أخرى . . . فى قرى أخرى ومدن أخرى . . . وسافر إليها العمال ينفصلون عن بيت العائلة . . . وظهرت هناك فروق بين الفلاح والعامل . فالعامل فى حاجة إلى أن يتعلم وبعد أن يتعلم فى حاجة إلى أن يتدرب . وبعد ذلك فى حاجة إلى سنوات للتدريب واكتساب المهارة . فلماذا كان الفلاح قادراً على أن يكون أباً وزوجاً فى العشرين فلإن العامل محتاج إلى سنوات أطول فى الدراسة والتدريب ليكون قادراً على بناء الأسرة وكذلك الزوجة العاملة أيضاً . وما دام الأب قد تعلم فإن أولاده يجب أن يتعلموا أيضاً وهو لا يستطيع أن ينفق على أولاد كثيرين . ولذلك يجب أن يكون عنده طفل أو اثنان على الأكثر .

فابتعد الناس عن الأرض وعن بيت العائلة . . . وانتقلوا إلى جوار المصانع يعملون فى الدكاكين والقدرة والورش الرطبة . . . وفى المناجم المظلمة الخائقة . . . لقد ذهبوا كأفراد . . . كعائلات .

والإنسان الذى اخترع الآلات أصبح ضعيفاً أمامها فهو قد اخترعها لكي يخفف عن نفسه أعباء العمل اليدوى الشاق البطيء . . . فقد أراحته فعلاً ولكن فجأة وجد أن هذه الآلات فى حاجة إلى هذا العدد الكبير من

العمال . . إنها تعمل على إنقاص عدد الأيدي العاملة . . وعلى أن تختار أحسن العمال وأكثرهم كفاءة وعلمًا وتجربة .

هذه الآلة قد أخرجت النضج العقلى عند العمال وأخرجت أيضًا النضج الاقتصادى .

فالعامل لا ينمو اقتصاديا إلا بعد الدراسة والتدريب . فإذا نضج اقتصاديًا بدأ يفكر فى العمل وبناء الأسرة . فجاء الزواج متأخرًا . ثم إن الرجل الذى كان يتزوج لتقوم زوجته بكثير من الأعمال فى البيت لم يعد فى حاجة إلى كل ما تعمله المرأة فى البيت . . فكل الذى كانت تصنعه موجود الآن فى الدكاكين دون حاجة إلى زواج .

لقد انحسر دور المرأة تمامًا .

فالرجل لا يستطيع أن يتزوج مبكرًا ولا المرأة .

وكان الرجل فى المجتمع الزراعى يفزع إذا عرف أن فتاة كانت مخطوبة لرجل آخر . . أو حتى تزوجته ثم انفصلت عنه . . أما فى المجتمع الصناعى فينظر إلى المرأة التى أغلقت على نفسها الباب والشباك على أنها امرأة جاهلة عبيطة ساذجة . . ويرى أن المرأة التى يريد لها زوجة يجب أن تكون عرفت وسمعت وقرأت . . أى على دراية بالدنيا . . لتكون أكثر حرصًا على أسرتهما وزوجها وأولادها . وتكون قادرة على حماية نفسها وتكون عونًا لزوجها على مصاعب الحياة .

وإذا كانت الأسوار العالية والأبواب من رموز الحياة الزراعية فإن الأسوار المغنطة والفواصل الزجاجية والأندية والشواطئ من علامات الانفتاح الصناعى والنضج العقلى والحرية الاجتماعية أيضًا .

وفى المجتمع الزراعى كانت الأسرة هى وحدة المجتمع وكانت مصدر العادات والتقاليد وحامية لها أيضًا . . أما فى العصر الصناعى فقد تقلص دور الأسرة . كما تقلصت العادات والتقاليد .

التقاليد الاجتماعية والأخلاقية . . أما العادات الحديثة فليست في حاجة إلى أسرة كأن يشرب الإنسان من كوب أو يأكل بالملقعة أو يجلس إلى مائدة . ويشرب كل واحد من كوب وكل واحد يأكل من طبق خاص لا من طبق واحد . . وقد سجل ذلك كله في كتابه الشهير « تخلص الإبريز في تلخيص باريز » . وقد نقل كل هذه العادات إلى بيته . . ولكن لم ينقل الحضارة الفرنسية بتقاليدها الحديثة في البيت والشارع والمصنع . فليس أسهل من نقل العادات وليس أصعب من إرساء التقاليد .

انتهى دور الأسرة وقامت المؤسسات الاقتصادية والصناعية بدور الأسرة في المجتمع الزراعي . . فأصبح الولاء للمؤسسة والإخلاص للمؤسسة ورئيس المؤسسة هو كبير العائلة . وأروع صورة لذلك في اليابان . فالمؤسسة هي بيت العائلة . وكما إن أحدا لا يخرج على العائلة أو يتصل منها . . فكذلك العامل الياباني يعيش للمؤسسة هي التي تنفق عليه وهي التي تختار له الزوجة وتعلم له الأولاد ، ولوائح المؤسسة هي القانون الأخلاقي . ولم يحدث قط أن خرج واحد ياباني من مؤسسة سوني مثلاً ليعمل في مؤسسة ناشيونال - لم يحدث أبدًا . . لا هو يفعل وإذا فعل فإن المؤسسة الأخرى لا تقبله لاجئاً إليها . . وهذا هو أحد أسرار الثروة اليابانية . . حياته ومماته ارتبطا نهائياً بالمؤسسة التي يعمل لها وبها .

وبعد الحربين العالميتين الأولى والثانية ذهب الرجال للحرب . . ولم يعد منهم مائة مليون فكانت المرأة تعمل بدلا منهم في الحقول والمصانع . فلما انتهت الحرب كانت المرأة قد اتخذت لها مكاناً واكتسبت حقوقاً فكان صعباً ألا تكون مساوية للرجل .

وتساوت بالرجل في كل مكان ومجال . . ولم يعد الرجل هو صاحب القرار صانع القانون وأول من يعتدى عليه . . فالمرأة شريكة له أيضاً .

ولكن كل الاضطرابات الاجتماعية . والأخلاقية والعقلية قد أصابت الإنسان بعد الحرب . فقد اعتاد الرجال على العنف والدم والنار في الحرب . . ولذلك فهم أيضًا يلجئون إلى العنف فيما بعد الحرب . . وراح الرجال الذين بهدلتهم الحرب في كل الجبهات برا وبحرا وجوا يحاولون أن يعوضوا الذى فات في ممارسة العنف والقتل والسطو والتحلل من كل القيود . وإذا كان الزواج أيام الحرب فإن الطلاق يتتشر أيام السلام .

فالخوف من الموت يدفع الناس إلى الزواج ليكون لهم أولاد . . والاطمئنان إلى السلام يغري الناس بأن يتمردوا على القيود ويهربوا من البيت والزوجة والأولاد . . فلم تعد الأسرة أو العائلة هى الهدف والوسيلة وإنما كل واحد يفكر وحده ولوحده . . فالفرد هو وحدة المجتمع . . والمجتمع أفراد أعضاء في نقابة أو في مؤسسة أو مصنع . وكل واحد له رقم خاص كالسيارات . . ولا جامع بينهم إلا المصنع . . إلا لوائح العمل والعقاب والثواب .

شئ واحد أدهشنى في كل المعارك في لبنان . . شئ لم أجد له نظيرًا إلا في الأساطير الإغريقية . . وهو دليل على حيوية الشعب اللبناني وعلى إرادة الحياة وعلى تحدى الغناء . . ففى كل مرة تقع الغارات تتحطم الواجهات الزجاجية للمحلات . . فإنهم في اليوم التالى يصنعون واجهات زجاجية جديدة . . تتحطم هذه الواجهات الزجاجية فيضعون واجهات أخرى . . أما اللغز فهو : أنهم يعرفون أن الزجاج لا يناسب الشظايا ولكنهم مصرون على مواجهة الشظايا بالزجاج ، على مواجهة الموت بكل أهبة الحياة . . يضعون الزجاج وهم يعلمون مقدما أنه قد يبقى يوما أو أسبوعا ولكنهم مصرون على مواجهة الشظايا بالزجاج على مواجهة الموت بالحياة على مواجهة النهاية اليومية بالبداية اليومية .

إنها صيغة لبنانية للأسطورة الإغريقية القديمة : أسطورة سيزيف الذى

حكم عليه بأن يدفع أمامه حجرًا ضخماً إلى أعلى الجبل حتى إذا بلغ قمة الجبل انحدر الحجر إلى السفح ليرفعه إلى القمة إلى السفح إلى القمة . . إلى الأبد . . إن سيزيف يعلم أن الحجر مهما ارتفع فلكى يسقط . . كان لديه أمل في أن تتوقف هذه العملية التي لم يعد لها معنى ولم تعد لها نهاية . . يدفع الحجر كأنه يجد لذة في ذلك وبشعوره بسخافة الذى يعمله إلا أنه مصر أيضاً على أن يؤدي السخافة بلذة على أن يقوم بالعبث وكأنه يقصد ذلك . .

ولابد أن الشعب اللبناني يتحدى الشظايا العسكرية والاجتماعية والدينية بواجهات أكثر شفافية وصلابة من الزجاج . . فللى متى نحن لا نعرف إن كانت حيرتنا عقلية فإن الأجيال التالية سوف تكون حيرتها اجتماعية أخلاقية عسكرية سياسية زراعية صناعية . .

إن الشاعر إيليا أبو ماضي رجل طيب فلاح لبنانى هاجر إلى أمريكا وبقي فلاحاً . . لا فلاحاً أمريكياً يركب التراكتورات ولكنه فلاح لبنانى يزرع شجرة أرز ويجلس في ظلها يتغنى ويوهل نفسه لراحة النفوس الشقية . . ومن الذى ليس شقيّاً ياسيدى . .

فالذى يحارب شقى والذى يحاربنا أكثر شقاء . . والعذاب على الجائعين . وحتى الآن لا نعرف متى تنتهى صناعة الزجاج في لبنان . . أو هل يفلحون في تصدير فائض إنتاجهم إلى بقية البلاد العربية .

(٢)

ماتت الدنيا

حاولت أن أتسكع في شوارع أثينا كما كان يفعل أستاذنا العظيم سقراط . . كان يمشی حافيا عارى الصدر يستوقف الشباب ويسألهم . . ويخرجهم ويكشفهم ويفضح جهلهم . . وكان يرى أن الإنسان لديه كل المعلومات . . وهذه المعلومات نائمة في دماغه . . ولابد أن تدق عقول الشباب لتوقظ المعلومات النائمة . . فإذا قال له شاب : صباح الخير يا أستاذ .

قال له سقراط : فما معنى الخير وما الذى تقصده بكلمة أستاذ ؟

فهو لا يستخدم من الكلمات إلا التى يعرف معناها تماما . . أو يحاول ذلك . . ولابد أن تكون للكلمات قيمة العملات المعروفة المحددة . . فالدولار معروف عندك وعندى كم ستتيا .

وعلى هذا الأساس من المعلومات المؤكدة يكون التعاون والتكامل . . وكذلك المصطلحات الفلسفية .

واختار الفيلسوف العظيم سقراط أصعب ما فى الفلسفة : أن يعرف

معانى الكلمات لأنه لا يريد إلا وضوح الفكر . . والكلمات هى أوعية الفكر وأداة الاتصال والوصول . . فالكلمات جسور المعانى . . واللغة هى وسيلة الاتصال بيننا . . وكما إن وسائل المواصلات مختلفة فتكون الكلمات أيضًا . . تكون حارًا أو حسانًا أو سيارة أو طائرة أو إشارة .

وقد تطورت وسائل المواصلات . . من عصر الإبل إلى عصر البرقيات .

ولم أفلح فى أن اتصلك فى شوارع أثينا . . فالعاصمة اليونانية تغيرت وتقاطعت شوارعها وازدحمت بالناس وتقابلت بالسيارات . . والتقت فيها الضوضاء والأصواء . . فأنت لا تستطيع أن تكون « سقراط » دقيقة واحدة . . فقط عليك أن تخلع نعليك وأن تعرى صدرك فى شهور الصيف . . وإذا عدت إلى البيت ، وكنت نسيت أن لك زوجة وأولادًا ونسيت أن تعطى للسيدة حرمك درهمًا واحدًا ، فلا لوم عليها إذا أنت بطشت الغسيل وألقت على رأسك بالماء القذر كما كانت تفعل زوجة سقراط ذلك العبرى الصعلوك . . وكان العبرى يقول ضاحكًا . إن زوجتى كالسقاء . . ترعد وتبرق ثم تمطر بعد ذلك !

وأفكارها ماء قدر يليق بلسان الفيلسوف العظيم !

وكان سقراط ومن بعده تلميذه أرسطو يفكران أثناء المشى . . وكان أرسطو إذا جلس دقيقة فإنه بسرعة ينهض ويتحرك ويدور حول تلامذته . . ثم يدفعهم إلى أن يمشوا حوله . . بعضهم يكتب وبعضهم يعتمد على ذاكرته . . ولكنه كان يمشى ويهز رأسه . . تمامًا كما تهز شجرة تحملت بالثمار ، فتساقط أفكاره هنا وهناك . . وأحيانًا أفكاره كانت كالثمار تسقط ناضجة ، وأحيانًا كانت أفكاره مثل العصافير تطير ثم تعود إلى نفس الشجرة بعد أن استدرجت عصافير أخرى .

وكان أستاذنا عباس العقاد . . يحب المشى . . ولكنه لم يكن يمشى

مع أحد . . وإنما يفضل أن يكون وحده . . وأذكر أنني استأذنته في أن أرافقه بعض الوقت . . فوافق . . وكان هو الذى يتكلم عادة . . وهو ما أتوقعه . . ولم يكن صوت العقاد قويا ولا نبراته واضحة . . فكان لابد أن يتوقف . . وأتوقف ويتحدث . . ثم يستأنف المشى . . فإذا عرضت عليه أن يجلس كان يرفض . . وفى إحدى المرات اخترت طريقا خاليا من الناس والسيارات . . ولم يمض وقت طويل حتى قرر أن يعود إلى البيت . . أما السبب فهو أن يمشى نصف ساعة ويعود فى نصف الساعة . . فهو قد حدد ساعة واحدة للمشى . . سواء كان وحده أو مع آخرين . . فالعقاد لم يكن يجد متعة فى التفكير أثناء السير . . وإنما كان يفضل أن يمشى صامتا . . ولذلك لم يشجع أحدا على أن يرافقه . . أو يتشجع أحد على أن يكون ظلا صامتا . . والعقاد عندما يمشى يكون متجهما . . فتحتار إن كان وجهه صورة لأفكاره ، أو كان ذلك هو رد الفعل الطبيعى للدوشة التى حوله .

وأذكر أن أديسا لبنانيا وجدته يمشى فى الشارع . فصافحه وبمتهى حسن النية رافق الأستاذ العقاد بعض الوقت فلم يجده ينطق بكلمة واحدة . . فتركه دون أن يلفت نظره إلى ذلك . .

ولما سأله قال : أعوذ بالله . . إن الرجل كان فى حاجة إلى من يعطيه مسدسا لكي يطلقه على رأسى . . فقد اقتحمت عليه خلوته !

والحقيقة غير ذلك . . فالعقاد هكذا وحده ومع الآخرين . . فهو عندما يكون وحده ، لا يطبق عدولا . . وكل إنسان يدخل بين العقاد ونفسه فهو عدول يستحق من العقاد كل إهمال !

وكان توفيق الحكيم يحب أن يمشى وأن يتحدث أثناء المشى . وكان يتوقف من حين إلى حين . . ولكن وجودك مع توفيق الحكيم لا يعنى أنه يشعر بك تماما . . وإنما هو يرى فى وجودك معه وقاية له حتى لا يصفه

أحد بالجنون . . فهو معك يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع . . وكثيراً ما كنا نعبّر الشارع فيسبقني إلى الطرف الآخر من الشارع ونجى السيارات تفصل بيننا . . وكنت أنظر إليه فأجده ما يزال يتحدث وكأننى معه . . ويمضى يتحدث . . وقد يتنبه إلى أن أحداً ليس معه فيتوقف وينتظر ويستأنف الكلام بنفس الحماس !

سألنى طه حسين : قل لى كيف نجد أختنا توفيق الحكيم ؟
قلت : إنه بخير يا أستاذ .

قال : عندما تسيران معا على النيل ؟

قلت : يكون فى لياقته الفكرية يقول ويقول ونضحك .

قال طه حسين : عجيب أمر توفيق . . فقد كنا فى باريس لا نحب المشى وكان يؤكدلى أن المشى تبديد للطاقة وأن الأفكار كالبذور يجب أن تستقر طويلاً فى التربة التى ترسخ جذورها . . أليس عجيباً توفيق ؟ .
عندما كانت عنده طاقة ، كان يحب السكون .

ولما نقصت الطاقة راح يبدد ما تبقى لديه فى المشى !

أذكر أننى اقترحت على المرحوم يوسف السباعى أن يجعل لنا طريقاً صاعداً إلى المقطم . . وهذا الطريق نتمشى فيه . . ونحاول أن نستدرج إليه الشعراء والأدباء . . ما دامت القاهرة قد ضاقت بنا وضافت عنا . .

وكان يضحك ويقول : تفتكر كم تحتاج من رجال الأمن . . فهؤلاء الشعراء والأدباء لا يطيقون بعضهم البعض . . فهى مذبحة . . وسوف يقول الشيوعيون إننى دعوت إلى هذا الطريق لتصفيتهم جسدياً . . وسوف يقول آخرون إنى كوزير للإعلام والثقافة أريد القضاء على الإعلام والثقافة بدفع الأدباء إلى الانتحار من المقطم !

وفى كثير من المدن الألمانية نجد شارعاً صاعداً إلى الجبل اسمه « شارع

الفيلسوف « وألمانيا بها عشرات العباقرة نصفهم من الفلاسفة والنصف الآخر من الموسيقيين . . ففى مدينة هيدلبرج الجميلة يوجد بها طريق اسمه « ممشى الفيلسوف » . . أما الفيلسوف فهو الألمانى هيجل . . الطريق جميل . . صاعد إلى فوق . . ويتثنى وينحنى ولا بد . . أن الفيلسوف كان فى تمام الصحة والعافية وإلا كيف يصعد هذا الطريق الطويل . . أو إنه كان يصعده على مهل . . يستريح ويتأمل بعض الوقت . أو إن الطريق كان أقصر من ذلك . . ولكنهم أطالوه . . أو إن الطريق كان هكذا طويلاً ولكن المعانى كانت تحمل الفيلسوف على أكتافها فلم يكن يشعر بالوقت !

وفى مدينة انسبورك بالنمسا طريق اسمه « طريق جيته » . . وجيته هو أمير الشعراء الألمان . . ويقال إنه فى يوم من الأيام كان هذا الشاعر الكبير والموسيقار الفذ بيتهوفن يسيران معا . . فقال الشاعر للموسيقار . . تريد أن تعرف أينما أشهر فى هذا البلد . . فلما اقتربا من أحد المواطنين نزع قبعته وانحنى فسأله جيته مشيراً إلى بيتهوفن :

هل تعرف من هذا ؟ قال : إنه الموسيقار العظيم بيتهوفن !

وسأله بيتهوفن مشيراً إلى الشاعر : ومن تظن هذا السيد العظيم ؟

فقال الرجل : إنه سيادة العمدة !!

وكان ذلك آخر عهد الشاعر بهذا الممشى الجليل . . فإنه لا يجب إذا سار فيه أن ينظر الناس إلى طولهِ وعرضهِ على أنه العمدة وليس أعظم شعراء زمانه !

وكان الأديب الإيطالى البرتومورافيا يتمنى لو كان يقدر على المشى . . فهو أعرج لأنه أصيب بالشلل وهو طفل . . ولذلك تعلم الإنجليزية والألمانية والفرنسية والكتابة على الآلة وهو فى السرير . . ولكنه كان يحب السفر والترحال أما الممشى فهو لا يستطيعه . . ولذلك كان يفضل أن

يركب الحنطور البطيء الذى يوهمه بأنه يمشى على قدميه . . وفى إحدى روايات مورافيا تجد البطل يقول : فقدت الإنسانية أجمل ملذاتها لأننا لم نعد نمشى على أقدامنا . . فالمشى يجعلك تحس بالأرض وترى الزرع والحيوان عن قرب . . تراه وتلمسه . . وتتوقف عنده وتتأمل . . ولكن الجرى والطيران يجعلانك ترى الدنيا مساحات خضراء أو صفراء أو حمراء تراها لوحة بعيدة . .

ولا ترى نفسك واحدًا بينها . . فالمشى يجعلك فردًا فى أسرة الألوان والموسيقى والحياة ، والطيران يجعلك ترى الدنيا وقد ماتت . . فكل شيء يمضى بسرعة . . فلا تكاد تراه أمامك حتى ينطلق بسرعة الطائفة وراءك فكل شيء مات ، قبل أن تشعر به !

(٣)

اسم هذا الزمان

أناس يقولون إنه زمان : يا جارى أنت فى دارك وأنا فى دارى !
يعنى أنت فى حالك فاتركنى فى حالى . . فلا أريد ، ولا أنت . .
وليس من الضرورى أن يتصادق الجيران . وإنما الأفضل ألا تكون
صدقة . . فهى عاطفة ليست حيوية . . بل هى ضارة أحياناً !

وقالوا : نحن فى زمان الإنسان الصغير . .

والإنسان الصغير هو بلايين الناس . . ألوف ملايين رجل الشارع . .
الجهاهير الصامتة . . أو الجهاهير العاملة . . ففى هذا الزمان ارتفع وزن
الإنسان الصغير . . فلم يعد صغيراً . . وإنما الصغير إلى الصغير كبير . .
ذرة رمل إلى ألف ألف مليون ذرة يكون بها جبل . . أو ساحل . .

فظهرت للإنسان الصغير فلسفات سياسية واقتصادية يطالب بحقه
المسلوب فى أن يعيش وأن يكون لحيشته معنى وهدف . ويكون هو عند
دفة الإدارة والإرادة . .

نحن فى زمن الإنسان الصغير الذى لم يعد صغيراً !

وقالوا : نحن في زمن الشيء الصغير

فقد أفلح العلماء في أن يفتتوا المادة إلى ذرات . . وأن يدخلوا الذرة
فتنتقل منها طاقة هائلة قادرة على التدمير . . فنحن في عصر الشيء
الصغير . . في عصر الذرة . . القنبلة الذرية . . ذرة اليورانيوم وذرة
الهيدروجين . .

فكما إن الإنسان الصغير لم يعد صغيراً فالشيء الصغير ليس صغيراً .
ولو نظرت إلى ذرة تحت الميكروسكوب لوجدت ميادين فسيحة فيها حركة
هائلة . . قوى هائلة . . إذا انطلقت ذرة على ذرة على بلايين الدرات
كانت ملايين القنابل شديدة الانفجار . . نجاساكي و هيروشيما وماذا
أصابها بسبب هذه الأشياء الصغيرة التي انطلقت منها السنة جهنم تفتك
بمئات الألوف من الأحياء وملايين الذين كانوا بعيداً عن المدينتين .
وبالأرض وبالأشجار . . والطيور . . وسوف تظل آثار القنابل الذرية
مئات السنين . . مرضاً مريباً بأهل اليابان حتى الموت .

وقالوا : نحن في زمان اللاشعور . .

فليس صحيحاً أن كل حياتنا واعية عاقلة . . وإنما هناك في أعماق
الإنسان مشاكل وعقد . . وهموم ومخاوف . . وهي جميعاً ولدت في طفولتنا
ولم تمت . . وإنما بقيت هناك في أعماقنا تنطلق عند الغضب وعند
الخوف . . فكان صدورنا أقفاص تعيش فيها حيوانات تنتظر فرصة انفتاح
باب القفص . . أو إذا لم يفتح فإنها تحطمه وتخرج . . فكان صدورنا هي
الكهف القديم . . وليس في هذا الكهف إلا حيوانات مفترسة . . هذه
الحيوانات هي نحن كما كنا من عشرات الألوف من السنين .

أذهب إلى طبيب نفسي واسمع ماذا يقول ؟ . . تقول له : عندي
صداع دائم يادكتور . . عندك علاج ؟

يشير الطبيب إلى كرسي طويل ويطلب إليك أن تتمدد . . وتكون على راحتك . . وتقول كل ما يخطر على بالك . . وخاصة ما حدث لك في طفولتك . . وفجأة تحس بأنك صغير وأنت تبكى . . وأن والدتك ضربتك على رأسك وجبستك في غرفة مظلمة . . وأنت تصرخ . . وبعد أن تصرخ وتبكي يقول لك الطبيب : قم الآن .

ويذهب الصداق . . فقد كانت مخاوفك مثل ثعبان وضعت عليه قدمك ورفعت قدمك فهرب الثعبان . . أو تكون همومك مثل أسماك أخرجتها من ماء الماضي فهانت .

فكل شيء في ماضيك موجود في صدرك . . في عقلك . . في خيالك . . في أحلامك . . فلا شيء يموت . .

وأصبح الإنسان كالشجرة فروعها ظاهرة وجذورها الطويلة الملتوية متشعبة تحت الأرض . . لا تراها ولكنها هناك .

وقالوا : نحن في زمان الحديد والنار والدم !

فالإنسان حيوان مقاتل . . ولم تنته الحروب في أى وقت . . في زماننا هذا ٢٧ حربا صغيرة دائمة . . إنها صغيرة ولكنها موجودة . . ولم يحدث أن اختفت الحروب في التاريخ إلا فترات ضئيلة جدًا . ولولا الحروب ما تطور العلم والطب والمواصلات .

فمن أين نحىء الحروب ؟

نحىء من الخوف . أنا أخافك وأنت تخافنى . . فنستعد نحن الاثنين والخوف يدفعنى إلى الحق . . والحق يدفعنى إلى الغضب . والغضب يجبرنى إلى العنف . والعنف هو الأب الشرعى لكل الحروب .

وما دمنا جميعا نحوى على مشاعر قوية فالحروب هى هذه المشاعر

وقد وضعت في يديها الحديد والنار . . أما الموت فيجىء بعد ذلك بلا مجهود !

وقالوا : نحن في زمن الملل . .

فالحياة أصبحت رتيبة . . الغد يجىء بعد اليوم . . واليوم جاء بعد الأمس . . وكل شيء لا تغير فيه ولا تبديل . . ولذلك يشعر الناس بالملل . والملل يؤدي إلى القرف . . يقرف الإنسان من نفسه ومن غيره . وهذا القرف يجعلنا نبحث عن الإثارة . . والإثارة في الطعام الحريف أو الساخن أو المثلج أو في العنف . . فالعنف هو الحادث الذي يهز المجتمع الراكد والنفس البليدة فليس صحيحًا أننا نرفض العنف ، وإنما نطلبه في كرة القدم . . في المصارعة . . في أفلام العنف . . وأفلام الحرب .

بل إننا نذهب لتفريج على أفلام العفاريت . . أى أننا نتزاحم من أجل أن نشترى الخوف ونشترى العنف لأنه ينقذنا من الملل والقرف .

والمخدرات جاءت لإنقاذ الإنسان من الملل . . من الواقع البليد فتخلق له عالماً خرافياً ثم يعتاد على ذلك ويدمن المخدرات !

وقالوا : نحن في زمان الإنسان الحزين . .

وهو حزين لأنه وحيد . . ورغم أن سكان الأرض ستة آلاف مليون إلا أنهم لا يعيشون معاً . . لهم وجود جغرافى وليس لهم وجود نفسى . . تماماً كما تدخل مطعماً أو سنيماً . . الناس معك ولكنك لست مع واحد منهم . . فأنت وحدك . . وهذه الوحدة تجعلك تمد يدك إلى الناس لكي تكون معهم . . ولكنك في نفس الوقت لا تريد أن يلتحم الناس بك . فأنت تقترب ولكن ليس كثيراً . . فأنت تخاف من الناس على نفسك . ولكن لا بد أن تعيش مع الناس وبالناس وللناس وضد الناس .

فالناس هم مثل الحوت الذى ابتلع سيدنا يونس عليه السلام . .
ولكن لأن يونس نبي فإن الحوت لم يأكله . . وإنما كان الحوت مثل غواصة
نقلته من البحر إلى الشاطئ سالماً آمناً . . أما الحوت البشرى . . الجهاير
والمجتمع والأجهزة الحكومية والتجارية والاقتصادية - فهى تبلع الإنسان
وتقتلع أظافره وأنيابه . . وهذه هى شروط القبول . . وهى شروط الحياة
معا

ولكثرة المشاكل فى زماننا قالوا : هذا زمان الأزمات . .

أى المصائب الكبرى التى ليس لها حل سريع . . وإنما هى مصائب
طويلة الأجل متعددة الأطراف . . والأزمات كالأمرض حقيقة واقعة .
لا بد منها ولا حيلة لنا فيها - نعيش بها ونعيش عليها . . وما دام وجودها
ضروريا فنحن لا نعمل على اختفائها . . وإنما فقط على إدارتها وإبعادها
عنا . . مثل حريق كبير . . ننفذ شظاياه عن ملابسنا . . ولكن يبقى كما
هو . . مثل البراكين . . لا طاقة لنا على إطفائها . . وإنما فقط نبتعد
عنها . . إنها مثل العواصف . . نتقيها ولكن لا نغلبها . .

ولذلك ابتدع الإنسان علم « إدارة الأزمات » أى علم الوقاية من
الأزمات وطرق علاجها . . تماما كالأمرض والزلازل والبراكين والأوبئة .
أو إننا فى زمان الهموم . . هموم الفرد وهموم الأسرة وهموم المجتمع وهموم
الإنسانية .

والهم شئ ثقيل نحسه ولا تراه وإذا رأيته كان ولدا أو زوجة . وإليك
هذه المعانى : تكفى هموم اليوم أما الغد فله هموم جديدة !

* * *

من مزايا الثقافة . . إنها تجعلنا نرى همومنا أوضح ولكن مع تعميق
عجزنا عن علاجها .

والعقول . . الالكترونية قد أراحت عقولنا فما أخرجنا إلى أجهزة
الالكترونية تحمل عنا همومنا أيضًا !

* * *

لا تأخذ « الغد » معك إلى فراشك !

* * *

الناس في قلق على مستقبلهم قبل أن يستعدوا لذلك !

* * *

لا يعرف الهم من مدد رجله على قدر لحافه !

* * *

المتفائل هو الذى ينتظر باستخفاف إلى هموم الآخرين !

* * *

« اليوم » هو « الغد » الذى كنت مهموما به « بالأمس » !

* * *

الفلوس هم إذا كانت عندك وهم أكبر إذا كانت عند غيرك !

* * *

المواطن العادى قلق على ما تنفقه الدولة وما تنفقه الزوجة ، ولكنه لا
يخاف أن يتقذ الدولة !

* * *

هناك طريقة مضمونة لكى تجعل أى إنسان أكثر هما وغما قل له يكون
كذلك !

* * *

القلق لا يغير الماضى ولكنه يفسد الحاضر !

لا تقلق - أفضل أن تقولها هكذا : لا تقلق على غيرك !

* * *

القلق هو الفائدة المستحقة على المتاعب قبل أن يمين موعد سدادها !

* * *

من الحماقة أن تقلق على أحد لا يمكن التحكم فيه - زوجتك مثلا !

* * *

بعض الناس في قلق على نهاية العالم - أكثرهم على نهاية الشهر !

* * *

أما لماذا الهموم تقتل الناس أكثر من العمل الشاق فلأنهم يقلقون أكثر مما يعملون !

* * *

رأيت في الجبال البركانية بالقرب من مدينة مانيفلا بالفلبين أن الناس يجلسون في فوهة البراكين الخاملة . . وكانت هذه الفوهات ترتجف تحتنا ولم نكن نخاف لقد اعتادوا عليها .

ورأيت الأرض أكثر خصوبة والناس أكثر حيوية في مدينتي نجاساكي وهيروشيا اللتين ضربتا بالقنابل الذرية .

سألت : ألا تخافون . . قالوا : لقد كان ذلك في الماضي . . ونحن أبناء اليوم ولا بد أن نعمل . . وحتى لو كنا مرضى فلماذا نعيش كأننا موتى مع أننا أحياء . . لقد كانت الهموم الذرية في ماضينا . ذهب الماضي ونحن مشغولون بهموم اليوم والغد .

وعندما ذهبنا إلى مدينة بومبي بإيطاليا لأنفجر على بركان فيزوف وجدت الأرض ما تزال ترتجف والماء يغلي من تحتها وعلى وجهها . . وقد أقامت الشركات السياحية بيوتا على الأرض البركانية . . وركبوا أجهزة

لرصد الهزات الأرضية ليعرفوا متى يعاود البركان نشاطه . . لقد اعتادوا على رعشة الأرض وقليل من الموت . . وكان ذلك نوعا من وضع الشطة والملح على المياه حتى لا تكون « مائعة » لا طعم لها حتى لو كان هذا الطعم هو الزلازل والبراكين .

وفي بيروت على الرغم من القنابل اليومية . . فلان تجار بيروت مصرون على تجديد السواجات الزجاجية يضعونها وتتحطم ثم يجدونها في اليوم التالي . . وتتحطم ثم يجدونها . . لقد اعتادوا على الدمار ، ولكنهم اعتادوا على أن يتفوقوا عليه فهم في مواجهة الموت يؤكدون إصرارهم على الحياة . . فهم بذلك يتعالون على القلق ويتحدون الموت .

وفي أساطير الإغريق نجد ذلك الفتى سيزيف الذى حكمت عليه الآلهة بأن يدفع حجرا أمامه إلى أعلى الجبل حتى إذا بلغ القمة سبقه الحجر إلى الانحدار فعاد يرفعه إلى الأبد ومعنى ذلك أن سيزيف يعلم أنه لا حل لهذه المأساة . . ولكنه يتصرف كأن هناك حلا . . وهو بذلك يتحدى سخافة القرار الذى أصدرته آلهة الإغريق . وهو يغيظ آلهة الإغريق بالآلا يشعر بالملل . . ويؤكد أنه وجد في هذه السخافة نوعا من المتعة . . هذه المتعة هي انتصار على الملل !

وأسماء أخرى لهذا الزمان !

(٤) أنت .. واحد من هؤلاء !

الناس معادن : حديد ورمصاص وذهب . . ندخل النار ونذوب
ونلتوى ونتوهج ونضيء !

* * *

ونحن ماء يجري ، وتراب يطير ، وهواء ينتشر . .
وفي كل مرة يدور حوار بيني وبين نفسي ، أحس أن واحدًا قد زاحمني
ثوبى . . فأنزع هذا الثوب لعل هذا الواحد أن يقع . .
وافأجا بأن الثوب الذى لا أستطيع أن أخلعه هو جلدى . . هو
سجنى الانفرادى .

ولأننى وأعدى الأعداء وأصدق الأصدقاء نعيش تحت جلد واحد !
بعض الناس رأى هذا الجلد من بعيد . . فبعض الذين يصابون بالإغماء
فى غرف الإنعاش فى المستشفيات يعانون من « لحظة موت » ، فتتفصل
روحه عن جسده ، ويرى جسده من بعيد ، من سقف الغرفة . . تمامًا كما
تلقي بثوبك على الأرض ، عليها . . ثم تنظر إليه — قليلون استطاعوا
ذلك !

ولكننا جميعًا لا نملك هذه المقدرة الخاصة ، أو لا نحظى بهذه الفرصة النادرة : نرى أنفسنا وقد تحررنا من قيود الثوب .

وربما كان الشعور بالراحة والانسجام عند الموت . هو أن الإنسان تخفف من أثقال الثوب . . ومن عروقه وأعصابه . . فهذا اللحم والشحم والعظم والدم يشبه ملابس فرسان العصور الوسطى . . إنها ملابس ثقيلة ولأننا اعتدنا عليها ، فلأننا لا نشعر بها . . هل تعرف متى تشعر بأن جسمك ثقيل . . عندما ينغمس أظفرك في لحم إحدى أصابع قدميك . . هنا يصبح جسمك كله مركّزًا على إصبعك . هنا تجد نفسك ثقيلًا . . برميليًا . . جيلًا وقف على إصبع واحدة ، أو وقف على أظفر على شكل إبرة مغروسة في لحمك !



كأننا طيور : حمام عندما نولد . . بلابل عندما نكبر . . نسور عندما نحكم . . هدهد عندما نتكلم . . بومة عندما نحقد . . ديك بين عشرات الدجاج عندما نتباهى ، ولكننا غريان عندما نودع هذه الحياة !



كان لى صديقي يحب مداعبة زوجته وحماته . أما مداعبته لزوجته فقد كانت ثقيلة . لأنك من الصعب أن تكون لطيفًا ظريفًا عند زوجتك . . فالذى يمثل على مسرح أمام متفرج واحد مدى الحياة من المستحيل أن يكون مسليًا !

ولذلك فقد كان يداعب حماته بقسوة . فقد أصدر كتابًا عن المرأة . وطلب منى أن أساعده في كتابة عبارة إهداء إلى حماته .

فاقترحت هذه العبارة : إلى حماتي وحيوانات أخرى ، أهدي هذا الكتاب !

ولم يعجبه الإهداء . فهو يرى أن حماته كأنها الحيوانات الأخرى .
وماتت حماته ، وكان يحبها فاقترح أن أساعده في كتابة إهداء لها .
فاقترحت هذه العبارة . . مكتوب على قبرها : همى تنام فى هدوء . وأنا
أيضاً !

* * *

وفى بعض الأحيان أجدنى فى حالة شجار مع نفسى ، ولا أعرف من
الذى ينتصر فى النهاية . .
مثلاً . أقول لنفسى : يا أخى ابتلع حبة منومة لكى تنهض مستريحاً فى
الصباح .

وأرد : ولكن لا أريد أن اعتاد على هذا النوم الكيمىائى . . أريد أن أنام
لأن جسمى فى حاجة إلى الراحة . . أريد من جسمى أن يفرض النوم على
نفسه .

- فإذا لم يأت النوم ؟

- أحاول غداً .

- وإذا لم يأت غداً .

- أحاول بعد غد . .

- فإذا لم يطلع عليك بعد غد .

- إذن لقد نمت إلى الأبد !

ولا أعرف من الذى ينافس من . . لا أعرف من الذى يصبر على أن
يوجع دماغى . . أو يوجعنى أنا وهو ، أو يوجعنا جميعاً . .

أحياناً أشعر كأننى عصفور خفيف . . أريد أن أقفز فوق الأشجار . .
وأن أظل كذلك حتى الموت بين منقار صقر أو قطة . لا يهم . . فالإنسان
لا يعرف كيف وأين ومتى تكون نهايته ، ولا يهيم كثيراً أن يموت فى الماء فى
بطن حوت ، أو فى الهواء فى بطن طائفة ، أو فى البيت فى بطنه هو !

فماذا حدث عندما ظهر علم النفس الجديد ، وعلم النفس التحليلي وعلم النفس المرضى ؟

جاء علماء النفس وملثونا بالحيوانات المفترسة . . أصبح القفص الصدري قفصًا في حديقة الحيوانات . . ففيه الكلاب والذئاب والأفاعى والأسود والحمير . . كلها جميعًا هي الإنسان نفسه ، ولكن هذه الحيوانات تظهر في أوقات مختلفة ، ولكنها لا تظهر بالترتيب حسب ذكائها أو حسب قوتها أو حسب احتياجنا لها . . فعندما يحتاج الإنسان لأن يكون أسدًا يجد نفسه حمارًا . . وعندما يناسبه أن يكون أفعى يبدو حمارًا ، وعندما ينقذه من الموت أن يكون قطه لها سبعة أرواح ، فإنه يتحول إلى دودة ضعيفة .

ويرى علماء النفس أن طبيعة الأمراض النفسية أن تلخبط ترتيب هذه الحيوانات . . ترتيب أدوارها وظهورها على مسرح الحياة اليومية . بل إن الحضارة الإنسانية قد علمت الإنسان أن يخفي مشاعره ، فيبدو وديعا وهو ذئب ، ويزار أسدًا وهو كلب . . .

ولكن من السهل على عالم النفس ، وعليك أيضًا أن تعرف الحيوان الذي تتحدث إليه . .

والتجربة بسيطة جدًا .

حاول أن تجرح كبرياءه .

حاول أن تمن عليه

حاول أن تحطف اللقمة من فمه . . والكرسي من تحته . .

هنا فقط تعرف أى حيوان هذا الذى أمامك . . وتعرف أى حيوان أنت أيضًا .

لا تغضب من نفسك ، ولا تحزن عليها ، ولا تنظر إلى من يقول لك على أنه قد أعطى لنفسه فرصة لكى يشتمك باسم العلم ، ويحتقرك باسم الحكمة . .

والحقيقة أنك كنت واحدًا من هؤلاء بعض الوقت ، فأنت كل هؤلاء كل الوقت . ولكنك لا تدري ! .

(٥)

وكانت هذه آخر أنفاسه !

إذا كانت المرأة لا تملك إلا دموعها ، فإن الرجل يملك الكلام عن هذه الدموع . ولو كان الرجل يملك سلاحاً أقوى من ذلك ضد المرأة لأطلقه عليها ، ولكن من حين إلى آخر يصدر كتاباً يضم عبارات شائكة ويحاول أن يلقبها تحت فستان المرأة . . أو تحت جلدها .

ولكن الذى يدهش الرجل ويغيبه أيضاً : أن المرأة تشتري هذا الكتاب . . ويكون الإقبال على الكتاب تحية من المرأة لكل من يجرحها . . وفى الوقت نفسه يكون دليلاً جديداً على أن المرأة تشجع الرجل على أن يقول . . لأنه مثلها لا يملك إلا أن يقول . . ولكن النصر فى النهاية تفوز به المرأة .

وأحدث كتاب صدر للكاتب الأمريكى « شين كنان » الكتاب عنوانه « لعبة الحب » . هذا الرجل من أشهر « العزاب » فى أمريكا . يقول المؤلف : لم أتزوج إلا منذ أيام . بعد أربعين عاماً من الحياة الجميلة . . طائراً خفيفاً وصديقاً لعشرات الفتيات . . ويبدو أن هؤلاء الفتيات قد دربننى لكى أكون زوجاً صالحاً . أما هذه الصفحات التى أنشرها فليست

إلا أوراقاً قديمة في أحد أدراج مكتبي . . لم تشأ زوجتي أن تقرأها . . إنها امرأة ذكية . دعوني أقول إنها خبيثة جداً . . لأنها تعلم أن هذه الكلمات هي آخر أنفاسي . .

ويقول المؤلف : لابد أنها غريزة في أن يجبد الإنسان أنواعاً من الصدف أو الظلطل الملون أو الأشواك على الأرض . . فيجمعها ويحاول أن يصنع منها عقدًا - في أواسط أفريقيا يفعلون ذلك - ثم يعلقها في رقبة من يجب . . أما أنا فأعرف أين أضعها . . أما أنت فحر في اختيار العنق الذي تلف حوله هذه الأشواك . . أو أنت حر في اختيار الشفتين المصبوغتين اللتين تلعبانك بإخلاص . . أما أنا فأعرف من الذي سوف يلعنني بعد أن أفريغ من هذا الكتاب . . إنه أنت !

* * *

لا شيء أعذب من الحب . . أي أكثر منه عذوبة وعذائًا .

* * *

الحب سحر يلخبط عقل إنسان من أجل إنسان آخر .

* * *

من النظرة الأولى يولد الحب . وفي الثانية يموت .

* * *

الحب مرحلة من حياة الرجل ، ولكنه كل حياة المرأة .

* * *

كل الناس يحبون المحبين .

* * *

الحب الحقيقي لا يظهر في الصفحات الأولى من الصحف .

* * *

إن كان قصرًا أو سجنًا لا يهم : فالمحبون يجعلون كل الأماكن متشابهة .

إذا كانت الحيلة زهرة فالحب رحيقها .

* * *

الحب : فترة استراحة لذيدة بين رؤيتك لفتاة جميلة واكتشافك أنها قبيحة .

* * *

الحب صياد ولكنه أعمى .

* * *

بلغة الأطباء : الحب مرض تحت الجلد . . أو هو تخدير كامل للجهاز العصبي .

* * *

إذا انتصر خيالك على عقلك : فأنت في حالة حب .

* * *

الحب رد فعل اليأس .

* * *

أعطيه صورتك الجميلة ، وأعطها أنت صورتك الجميلة : وبعد ذلك يبيء الوهم الجميل .

* * *

لا علاقة للحب بالزواج . فأنت تتزوج مرة وتحب ألف مرة . فالزواج قانون والحب غريزة .

* * *

لا يصبح الحب ساحرًا ، إذا عرفه الناس .

* * *

طبيعة المرأة : أن تحبك عندما لا تحبها ، وألا تحبك إذا أحببتها .

* * *

إذا أردت من امرأة أن تحبك كن مجنونًا . . فالمرأة لا تحب العقلاء .

من الضروري أن تكون حريصًا . . إلا في الحب ، فإن الحرص يقتل
الحب .

* * *

إننى أفضل هذا الرجل لأنه كذا وكذا . . وإننى أحب هذا الرجل رغم
أنه كذا وكذا .

* * *

خير لى أن يكون حبي فاشلا ، من أن يكون فشلى بلا حب .

* * *

كل ما تريد أنت هو الحب : غلط . . كل ما يريده الحب هو أنت
صح .

* * *

تقدمت للزواج من فتاة وكنت فى الرابعة من عمري ، ثم قابلتها بعد
عشرين عاما ، فهنأت نفسى على ذوقى الجميل .

* * *

الرجل يخطف القبله الأولى . . ويتوسل من أجل الثانية . . ويطلب
الثالثة . . ويأخذ الرابعة ويتنظر الخامسة . . والباقى ييجى من تلقاء
نفسه .

* * *

المراة لا تزال تذكر القبله الأولى ، بينما ينسى الرجل القبله الأخيرة .

* * *

هذه الأيام يعيش الأعزب كالمتزوج . . ويعيش المتزوج كالأعزب .

* * *

الأعزب هو الرجل الذى ينظر أمامه قبل أن يخطو . . ثم يقف فى
مكانه .

يجب أن تشعر المرأة بالامتنان لكل هؤلاء العزاب ، فلو كان الناس

متزوجين جميعًا فمن أين يأتي لها العريس ؟

* * *

قررت ألا أتزوج حتى أجد المرأة المثالية . ثم وجدتها . ولكنها كانت تبحث عن الرجل المثالي .

* * *

إذا سألتك إن كنت تحب تسريحتها هذه فاحترس . . لقد قررت أن تفاتحك في الزواج بعد ذلك .

* * *

أسعد النساء مثل أسعد الشعوب . ليس لها تاريخ .

* * *

أن تتزوج : هذه مسألة خطيرة . . ألا تتزوج : هذه أخطر .

* * *

قرأت للعالم الكبير فرويد هذه العبارة : بعد ثلاثين عاما من الدراسة والبحث والفحص والتأمل لم أستطع أن أجد جوابا عن هذا السؤال . بالضبط ما الذى تريده المرأة ؟

* * *

الاشتباك في الحرب : معركة . . وفي الحب : استسلام .

* * *

الحب قبل الزواج : مثل مقدمة موسيقية للحن ردىء .

* * *

كلما سافر إنسان وتعلم وتألم في الخارج كان ذلك أكبر دليل على أنه سوف يتزوج فتاة من أعمق أعماق الريف .

* * *

ارتفاع نسبة الزواج بين مضيفات الطيران سببه أن الرجال مربوطون في مقاعدهم .

الأذن عفيفة ولكن العين جريئة

* * *

- هل تستطيع أن تغسل الأطباق ؟

* * *

- نعم بشرط أن تحففيها .

* * *

المرأة تختار الرجل الذى يختارها !

* * *

الزواج كتاب : الفصل الأول نظمناه شعراً ، أما بقية الفصول فقد كتبناها نثراً .

* * *

الرجل والمرأة يتزوجان : لأن أحداً لا يعرف ما الذى يصنعه بحياته .

* * *

الزواج هو أكبر دليل على اللقاء السعيد بعد شئ لا يمكن زحزحته .
وقوة لا يمكن قهرها .

* * *

فى الزواج كما فى الحروب : استخدم كل الوسائل لحقن الدماء .

* * *

لا هو جنة ولا هو نار : بين بين .

* * *

الزواج : ذكرى الحب الذى كان .

* * *

الزواج ليس كاملاً ، ولن يكون . . ولكنه أجهل وأكمل العلاقات الإنسانية .

الزواج ينطبق عليه المثل المصرى الشعبى : لا فىنى ولا تغدىنى .

* * *

الزواج : كالفلوس فى جييك . . ولكن سعرها فى النازل دائماً .

* * *

الزواج كورقة اليانصيب . . ولكنك لا تستطيع أن تمزق الورقة
الخاسرة .

* * *

الزواج معجزة تحول القبله إلى واجب ، والحياة إلى عيشة والسلام .

* * *

كل امرأة : أم فى الصميم . . وكل رجل : أعزب فى الصميم .

* * *

كثيرون يقولون : كان نجاحى بسبب زوجتى الأولى . . وكانت زوجتى
الثانية بسبب نجاحى .

* * *

خير لك أن تحب زوجتك من ألا تحب مطلقاً .

* * *

زوجى لا يعاكس امرأة أخرى . إنه عاقل . . رقيق . . مهذب وعجوز
أيضاً .

* * *

الزوجة المثالية لا تكون إلا إذا كان زوجها مثالياً .

* * *

مع رجل تحبه كل النساء : إنها فى حالة شك . . ومع رجل تكرهه كل
النساء . أنت تعيسة .

بعد الثلاثين : تكون لك أفكار عن المرأة . قبل الثلاثين : تكون
عندك مشاعر .

* * *

المرأة انتصار للمادة على العقل ، والرجل انتصار للعقل على الأخلاق .

* * *

في جلسة النساء أحب جاهلن وأناقتهن وزيتتهن . . وصمتهن !

* * *

أحب شاعرية الرجل ولا أحب الشعراء .

* * *

لا أحب الرجل الذي استلطفه ، ولا استلطف الرجل الذي أحبه .

* * *

إذا رجل أتى لزوجته بهدية من غير سبب ، فلأن هناك سبباً .

* * *

وجه المرأة رأس مالها . . ولكن الأرياح تعود على بقية الجسم .

* * *

أول سؤال يجب أن يخطر على بالك إذا قابلت أرملة مريحة : ولكن لماذا
أنت مريحة ؟

* * *

المرأة تمر بست مراحل من عمرها : طفلة وطفلة صغيرة وأنسة وسيدة
شابة وسيدة شابة وسيدة شابة .

* * *

نحتاج الأم إلى عشرين عاما لتجعل من طفلها رجلاً عاقلاً ، ونحتاج
امرأة أخرى إلى عشرين دقيقة لتجعل منه مغفلاً .

ولم يكن شيخنا الشيطان !

مثل كل الوافدين من الريف ، كان هدفنا : التوطين والبديل . .

أى أن نوطن أنفسنا في القاهرة فنعرف شوارعها والتزام والأهرام وأولياء الله الصالحين ثم الصعلكة في الشوارع والمكتبة العامة . . والانبهار بالدنيا الجلدية والخوف من الضياع فيها . . في الريف كل شيء قريب . . وكل الناس أقارب . . وفي الريف أنت ترى وتسمع وتلمس كل إنسان . . ولا توجد أسرار . . فالمسافات متداخلة . . ثم إننا أسرة واحدة . . مثل الأصابع في يد واحدة . . ولكن في القاهرة فالشوارع طويلة والمسافات بعيدة وليس كل من تراه تعرفه ولا كل من تعرفه صديقك أو قريبك أو يمكن أن تهمس في أذنه بما يخيفك . . في الريف أنت لست في حاجة إلى أن تهمس فكل الناس يعرفون كل الناس . . أما في القاهرة فقد غطوا حواسهم فلا يرون ولا يسمعون ولا يلمسون ولا يهمهم كثيرا أن يكون لك وجود . . .

وكذلك إلى القاهرة جئنا نبحث عن البديل . . عن الأسرة البديلة . . عن الأب والأم والأشقاء . . ونبحث عن « سيدنا » أو « شيخنا » . . فالدين تعلموا في كتاب القرية كانوا يجلسون على الأرض . . أما معلمنا - سيدنا

فهو يجلس فوق مصطبة . . يجلس عالياً . . نرفع رؤوسنا لكى نراه .
والكلام ينزل علينا من شفثيه مقدساً . . أو أوامر صارمة . . فهو الذى
علمنا كيف نتلو القرآن ومبادئ الكتابة والضرب والطرح وهو الذى
يصدق كل الناس . . فإذا شكواه إلى الدنيا فإن أحدًا لا يصدقنا . . إنه
سيدنا . . إنه شيخنا وهو لا يكذب . . وفى القاهرة وجدنا البديل فى
الجماعات الدينية والصوفية والأديبة . . وحاولنا أن نجد فى الأستاذ
الجامعى أبا ومعلماً . . وأجلسنه عالياً . . ولكنه لم يستطع أن يكون أبا أو
أخاً لألف طالب . . بينما كان سيدنا أبا وأخاً لعشرين أو عشرة من طالبى
العلم الصغار . . فالمدركات الجامعية كبيرة واسعة . . والطلبة كثيرون . .
والمسافة بيننا وبين الأستاذ بعيدة . . والأستاذ ليس « شخصياً » فى كل
تصرفاته . . فهو يكلمنا عمومًا وينظر إلينا عمومًا . . فهو لا يركز على
واحد منا . . وإذا فعل فثانية واحدة . . ولذلك كان الطلبة يحاولون أن
يربطوا أنفسهم بالأستاذ . . وكان الرباط من طرف واحد - طرفنا نحن . .

وأدركنا أن هذا هو الوضع الجديد فى القاهرة . .

لا أب ولا أم ولا أخ ولا أخت . . وكل ما بيننا : صلة . . علاقة . .
أما (الوشيجة) أو العلاقة الحميمة فتلك كلمات ريفية . . والقرب
والقربى والقربة كلمات ريفية . . أما الكلمات فى العاصمة فهى : الغربة
والغربة والاعتراب والمسافة والهوة والفجوة . .

ويسبب هذا الشعور بالمسافات كان لابد أن نبحث عن مأوى . . عن
حضن آمن . . عن مخبأ فى مواجهة المجتمع الكبير المتوحش . . الذى
يسحق كل فرد . . والذى لا نستطيع أن نواجهه وحدنا . . ولكن لابد من
ساتر . . ولابد من رباط . . من جمعية . . جماعة . . أسرة . .

وهكذا انقسم المجتمع الكبير فى العاصمة : نحن وهم . . نحن
الوافدون من الريف وهم أبناء العاصمة الذين لا نعرفهم ولا نفهمهم . . .

(إننى أحاول هنا أن أرد على الشاب الذى بحث لى سؤالاً أثناء ندوة المعرض الدولى للكتاب . . يقول فيه : إننى أحسن حفظاً منه . . فقد كان لى أساتذة . . . وليس له . . كان لى العقاد ود . طه حسين والحكيم وحسن البنا ولطفى السيد وسلامة موسى ولويس عوض وعبد الرحمن بدوى) .

ولم نسأل أنفسنا : ولماذا يكون لنا أستاذ . . أو شيخ . . لماذا يحتاج الإنسان لى ترجمان لكى يعرف الهرم وأبا الهول ! لماذا لا نقرأ عن ذلك ثم نذهب وحدنا نفهم ونحاول . . وإذا لم نفهم فإننا نحاول مرة أخرى . . ولم نسأل أنفسنا إن كان من الضرورى أن نحفظ بصورة (الكتاب وسيدنا) فى جيوبنا وقلوبنا مدى حياتنا فى القاهرة ! وإذا كان هذا مستحيلاً ، فلماذا إصرارنا على المستحيل . . ألا توجد مشاكل أخرى . . هموم أخرى . . خطوط خطوط . . عقد وحلول وعلامات مرور وأهداف بعيدة وأهداف قريبة . . لم نسأل أنفسنا . . وإنما كنا مثل كائنات (مبرجة) . والبرنامج هو أن نبحث عن سيدنا الشيخ فى كل مكان . لماذا ؟ لأن الحكمة الصوفية تقول : من لا شيخ له فشيخه الشيطان ! أى لابد أن نضع أيدينا على كتف من هو أكثر علماً وتجربة وبصيرة . . لابد أن يكون لنا مرشد عام ومرشد خاص . . لابد أن نخوض به ومعنا ووراءه خضم الحياة فى العاصمة . .

ولذلك لم أندesh بعد ذلك عندما انضممت لى جمعية (ثيو صوفية) أى جمعية الحكمة الإلهية . . هذه الجمعية تضم عددًا من موظفى محلات شيكوريل وهانو . . وكان يرأس هذه الجمعية شاب مصرى يهودى . . ولم أندesh فى ذلك الوقت كيف أكون أميناً لمكتبة (الإخوان المسلمين) فى إمبابة وفى نفس الوقت عضواً فى هذه الجمعية التى تتحدث عن كل الأديان . . وإلغاء الفوارق بين الناس . . وفى نفس الوقت كنت عضواً فى جمعية يسارية فى الجزيرة . . وكان المذهب الشيوعى يبهرنى ويسحرنى فكل كلام الشيوعيين منطقى وبالعقل . . ومن الذى لا يريد أن يتحقق العدل

في الدنيا . . فلا غنى ولا فقر ولا ظالم ولا مظلوم . . وكان من آمالي في ذلك الوقت أن أعيش لأرى الحياة كما تمنّاها ماركس ولينين وتروتسكى وسيلونه . . من الذى لا يتمنى أن يعيش ولو عاما واحدا في دنيا بلا فلوس ولا ذهب . . فكل شيء ملك لكل الناس . . تماما كالحياة في الغابات . . الأشجار والشمار لكل الناس . . وقد انضمت أيضا إلى جماعة (الاسبرانتو) أى اللغة الدولية . . وهى اللغة التى وحدث بين كل اللغات وأزالت الفوارق بين اللغات الأوروبية بتبسيط قواعد النحو والصرف - إنه حلم رائع وطموح عظيم أن نمسح الفوارق اللونية بين الناس . . والحواجز اللغوية . .

حتى اهتمت إلى الأستاذ العقاد . . وكنا نزوره في بيته كل يوم جمعة . . وهو أكبر شخصية رأيته في حياتى حتى ذلك الوقت . . إنه مختلف عن كل الناس الذين عرفتهم أو قرأت عنهم . . فالعلم يتدفق منه بسهولة . . ولم يبهرنى علمه ولكن بهرنى عقله واستيعابه وقدرته الفذة على التحليل . . وظللت مسحورا بالرجل . . فهو أهم حدث أسبوعى في حياتى . . وكنت أستعد لهذا اللقاء . . وأحاول أن أعيشه . . فأنا أتحدث عنه قبل أن ألقاه . . وأتحدث عنه بعد ذلك . . فاللقاء ساعتان في كل أسبوع . . ولكن الحديث عنه طوال الأسبوع . .

وعرفت طه حسين أيضا . . ولكن مع الأسف عرفت طه حسين متأخرا جدا . . وقد حجب العقاد عنى رؤية هذا الفنان العظيم . . وحجب طه حسين عن عيني رؤية توفيق الحكيم . .

أما حسن البنا المرشد العام للإخوان المسلمين فهو طراز مختلف من الناس . . .

أما سلامة موسى فقد عرفته عندما عملت في (الجريدة المسائية) التى رأس تحريرها كامل الشناوى . . ثم عرفته بعد أن أغلقت هذه الجريدة

وذهبنا معا إلى مجلة (النداء) التي يملكها ياسين سراج الدين ويرأس تحريرها على عبد العظيم المحامى . . وعندما ذهبنا معا إلى أخبار اليوم . وكان من الصعب أن أحبه . . فهو ليس ودوداً ولا رحيماً وإنما هو ساخر بكل ما تعلمناه . . وما فرحنا به . .

ولم أتساءل إلا متأخراً جداً : من هذا العقاد ؟ من طه حسين ؟ ومن الحكيم ؟ وكانت نظرتى إلى هؤلاء من نافذة صوفية . فالصوفية ترى أنه لا بد أن يكون للإنسان شيخ يهديه سواء السبيل . . ولم أجد واحداً منهم شيخاً أو عنده هذه القدرة . . أو هذه الرغبة . . أو حتى يراها ضرورية . .

سألت أستاذى الشيخ عبد الرحمن أبو الفداء المطراوى وهو بلدياتى . وهو أول رجل وقور أراه عند وصولى إلى القاهرة ، فقد حملت له خطاباً من أحد أقاربه وكان عالماً من علماء الأزهر الشريف . ولم أعرف ما الذى قاله له . وما الذى أوصاه به . لا أعرف ولا حاولت . ولكن الشيخ المطراوى طلب منى أن أزوره بعد العشاء . . لا بد أن يكون بعد العشاء . . ولا بد أن أشرب القهوة وأن أشرب التمتع . . وأن يجلس هو على الدكة وأجلس أنا على الأرض - وشرح ذلك بأن طالب العلم يجب أن يكون متواضعاً . فمن تواضع لله رفعه إلى أعلى مقام . . .

وكانت الأرض من البلاط . . وكان لا بد أن أعطس . . وعطست . وأصابنى الزكام ولم يشأ الرجل أن يأتى لى بشاى بليمون أو اسبرين . . وإنما رأى فى هذه الإصابة بداية التجربة والمعاناة والمشقة . . . قال لى اسمع يا ولدى !

وشرح لى مراتب التعليم الصوفى . . وقال لى إن الطريق طويل . ولكن الطويل بالصبر يصبح قصيراً . والثقيل بالإيمان يصبح خفيفاً والعظيم بالتواضع يصبح يسراً . وإن هذه هى البداية . . فالشيخ - عند الصوفية - هو أعلى المراتب . . والشيخ هو الرجل الذى فيه كل الصفات

والفضائل وهو العالم بكل شيء . ويوم القيامة يحىء مقعده إلى جوار
عرش الله . .

وهناك أولا : شيخ الإرادة . وهى أعلى الرتب . فهو الذى إرادته هى
إرادة كل الناس .

وثانيا : شيخ الاقتداء . . أى الذى هو قدوة حسنة لكل السالكين فى
هذه الطريقة الصوفية الشاذلية . . وثالثا : شيخ التبرك . . أى الذى
يذهب إليه الطالبون حتى تحمل بركته فيهم . . رابعا : شيخ الانتساب . .
فكل طالب يجب أن ينتسب إلى شيخ . .

فيقال هؤلاء تلامذته وأتباعه وحواريوه . . ويقوم الطالب بدور الخادم
يغسل ويكنس ويمسح البلاط ويجلس على الأرض وينفض حذاء الشيخ
وكنا نفعل ذلك فى (كتاب القرية) وكنا نخرط الملوخية لزوجة سيدنا
ونغسل ونطعم الأرناب ونقشر البصل . .

خامسا : شيخ التلقين وهو المعلم الروحى الذى يعطى لكل واحد من
السالكين فى هذه الطريقة ما هى الأدعية التى يرددها . .

سادسا : شيخ التربية أى الذى يقوم بتدريب المبتدئين . .

ومن الممكن أن تتجمع كل هذه الصفات والمهام فى شخص واحد . .
وكان شيخنا المطراوى هو كل هذه الصفات . فالجلوس على الأرض حتى
الزكام لم يكن شيئا كبيرا . . ولكنه بداية التواضع !

فليكن . ما الذى تحصل عليه بعد ذلك . لم أحصل على أى شيء غير
عدائى المستمر لجسمى ولنفسى واحتقار كل رغباتى . . وفى مقدمتها
احتقارى لنفسى وقلقى ورغبتى فى أن أعرف وأن أفهم . . وأن أفرز طريقا
وأشع ضوءا . . كما تفعل العناكب التى تفرز خيوطها . . والكائنات
الليلية كلها تقضىء لنفسها إذا غاب القمر وغربت الشمس واختفى
الشيخ سيدنا . .

ولم أجد شيئاً من ذلك لا فى العقاد ولا طه حسين ولا الحكيم ولا لطفى السيد ولا أحمد حسن الزيات ولا أحمد أمين ولا محمد عوض محمد ولا محمود حسن إسماعيل ولا عزيز أباطة ولا على أدهم . . لا شىء عندهم . . فهم جميعاً مشغولون بأنفسهم . . يحاولون تأكيد ذواتهم . . وليس تأكيد أحد إلى جوارهم . . ولذلك بدأت أشعر فى جلسات العقاد أنه يعاملنا على أننا عيال . . حتى الفلسفة التى تخصصنا فيها . كان العقاد يسفها . . وكان هجومه أعنف على أساتذتنا . . أى لا هو ولا يصح أن يكون لنا أساتذة . . إذن ماذا نعمل ؟ ولم يشغله هذا السؤال وإنما هو سعيد بأن يقوم بدور الحاوى يخرج الكتكوت من جيب البيجاما . . ثم يلقى بعصاه فى كل عصا أساتذة الفلسفة والفلاسفة أيضاً . .

ولما قلت للأستاذ العقاد فى إحدى المرات إننى أؤمن بالفلسفة الوجودية كانت سخريته عظيمة جداً . . وإننا - وإننى مرضى . . وإننا مشوهون نحن والشيوخ ولكن ما هو الحل ؟ ما هو العلاج ؟ ما الذى نعمله إذا نزعنا أزياءنا الفلسفية ؟ لم نجد عند الأستاذ العقاد حلاً لذلك . . إنه أقنعنا بأننا نعيش فى غيمات قدرة منهارة . . هدمها فوق رؤوسنا وتركنا نبحث عن مأوى . . ولم نجد هذا المأوى عنده . .

وازدادت تمسكاً بالفلسفة الوجودية كنوع من العناد وإثبات الذات والتحدى للأستاذ العقاد !

إذن العقاد ليس أباً وليس شيخاً لنا . . وإننا عندما ذهبنا كنا نطلب إليه ما ليس عنده . . وعندما ذهبنا إلى طه حسين . . إنه ألطف وأرق . . . وإنه أكثر أبوة من الأستاذ العقاد . . ولكن طه حسين هو الآخر مشغول بنفسه بفنه بعظمته . . بفرديته فى الأسلوب والتقد . . وإنه لم ينس أنه عميد وأنه وزير . . وأنه شيخ مشايخ الطرق الأدبية المعاصرة . . ولكنه لم يقل لنا ماذا نعمل ولماذا نكتب ولا كيف ؟

إنه شيخ ولكن بطريقة خاصة . . شيخ أزهرى تعلم فى باريس ، فهو
يكبره أن يكون شيخا . ويكره أيضا ألا يكون شيخا . . إنه متفجع . وله منا
عظيم الاحترام لشجاعته وانطلاقه . ولكنه لم يقل لنا أين وكيف ومتى
نبدا !

وعندما سئل الأستاذ العقاد عن رأيه فى أنا قال : ومن هذا ؟ وكنت
أتردد على ندوته من عشرين عاما . . يعنى أنه لم يترأى شيئا كتبتة والذي
قرأه لا يجعله يرى أننى شيء . . أو من الممكن أن أكون . . بينما طه
حسين قرأ وحدثنى ثم كتب لى مقدمة لكتابه (حول العالم فى ٢٠٠ يوم) .
وكان سقراط الأستاذ . . وكان أرسطو الفيلسوف . . ولأن له تلامذة
بمئات الألوف ، فلم يمنحنى أكثر من ذلك !

أما توفيق الحكيم فكان صديقا مسلما لكل الناس . . لا هو أستاذ ولا
هو شيخ ولا يجب أن يكون كذلك . وله عقلية تشبه شبكة الصيد . . أو
تشبه المصيدة فهو يجمع الناس حوله ويتصيد أفكارهم ويكتبها . . وقد
وقع الحكيم نفسه فى هذه المصيدة التى نصبها للآخرين . . فسمع قصصا
كتبها بعد ذلك . . ولم تكن هذه القصص إلا أفلاما معروضة فى دور
السينما ؟ ! .

ولا كان أستاذا لآحد ولا شيخا لأية طريقة . . وقد سألنى أحد
الحاضرين فى ندوة المعرض الدولى للكتاب إن كان العقاد وطه حسين
والحكيم هم الذين وضعونا على الطريق الصحيح ؟

وجوابى : أنه ليس صحيحا . فهم لم يضعوا أحدا . وليس بيننا واحد
قد تأثر لى درجة التلمذة على واحد من هؤلاء . . حتى أنا الذى كتبت
عنهم كثيرا . وعن العقاد أكثر . . لم تكن كتابتى عن العقاد إلا عن نفسى
فى مواجهته . . فأنا الذى صورت العقاد ألطف وأظرف . والحقيقة أنه
ليس كذلك . . وإنما اخترت ما يعجبنى وما لا يضايقنى أثناء كتابته . .

والصدمة الحقيقية للقارئ هي بعد أن يقرأ كتابي (في صالون العقاد) ثم يقرأ العقاد نفسه سيجده جافاً خشناً .

وقد حاولت مرة أن أعرض أحد كتب العقاد في عبارة سهلة . فاخترت كتاب العقاد عن أبي نواس . وقرأ توفيق الحكيم ما كتبت فقال لي : ولماذا لا تبسط كتب العقاد كلها . . . إنهم في الغرب . .

ولم أدعه يكمل عبارته وإنما بادرت به ساخطاً : تريدني أن آخذ من عمري وأضيفه إلى عمر العقاد ؟ طبعاً لا . ولا أرى أحداً في لغتنا أو في أية لغة أخرى يستاهل هذه التضحية الضخمة !

بل إن هؤلاء الثلاثة الكبار لم يحققوا معاً تحولاً جذرياً في الفكر المصري أو العربي . . . وإنما كل واحد كان يعمل في طريق . نحن فقط الذين رأينا أنهم يسلكون طريقاً واحداً بأدوات مختلفة . . . إنهم (ثلاثية / التنوير) في هذا القرن . . . ولكنهم كانوا متنافرين كأنهم عاشوا وماتوا في قرون مختلفة . .

وكتب الأدب الروسي - مثلاً - تروى لنا لقاء تاريخياً فريداً . . اللقاء تم بالصدفة على شاطئ البحر . . وقد التقى ثلاثة عظماء في سنة ١٩٠١ التقى الثلاثة في مدينة يالتا لأسباب صحية ، وبالصدفة تولستوى (٧٤ سنة) وتشيجوف (٤٢ سنة) وجوركي (٣٣ سنة) . . .

لقد التقى ثلاث مراحل تاريخية .

وثلاثة أنماط من الفكر .

وثلاث طبقات اجتماعية . . أما تولستوى فهو الأرستقراطي الفردي الساحر القادم من القرن التاسع عشر . . وتشيجوف هو المفكر ابن الطبقة المتوسطة الذي يحترم العلم ولا يهضم التجريبات الفلسفية وغير قادر على أن يرسم لها صورة متكاملة .

وجوركى هو ابن الطبقة العاملة الثورى الواثق من معلوماته والمتأكد من خطواته .

وكل من تشيجوف وجوركى ينظر إلى تولستوى على أنه الرجل الساحر الذى ينتمى إلى عصر آخر ذهب ويجب أن يذهب ولا يعرف أن فى الدنيا معابد جديدة لألهة جديدة . . وإن تولستوى هو الذى ملأ وجدان الناس ثم هرب وترك قلوب الناس فارغة . . وجوركى كان ينظر إلى تولستوى فى فزع وانتفاض . . فهو يرفض فلسفته الأصلية ، ويستنكر بنيانه الأخلاقى القائم على المقاومة السلبية ، ومواجهة الفساد بالسخط وليس بالثورة فى زمن التطور الصناعى والطبقة العاملة المتعاظمة ، وإن الشعب هو الملك صاحب التاج وصاحب الإرادة .

قال تشيجوف لجوركى : كنا فى حاجة إلى هذا اللقاء لكى نؤكد لأنفسنا أننا فى عصر آخر . وإنه من الواجب علينا الآن أن نقول ذلك للناس . أما تولستوى فسوف يبقى رمزاً لزمان مضى ولن يعود ، ولساحر لم نعد نحن المتفرجين عليه ! .

وكنا نسمع إلى رأى العقاد فى طه حسين . ويضايقنا ذلك .

وكنا نسمع لسخریات طه حسين بالعقاد ، ولا يسعدنا ذلك .

وكان توفيق الحكيم يسخر من الاثنين .

وفى نفس الوقت لم يكن بيننا نحن المترددين على ثلاثتهم لا أخوة ولا وفاق ولا رغبة فى رسم طرق جديدة وفتح شوارع وإقامة جسور . . ففى الوقت الذى آمنا بعظمتهم كفرنا بهم أيضاً . إنهم لم يشجعونا على الإيمان بهم . . ولا مددوا أيديهم ولا فتحوا أحضانهم . . ولا تركوا لنا جانباً من الشوب نجلس عليه . . . ولا حتى أشاروا إلى الأرض أن نكنسها وأن نغسلها وأن نجلس وننتطح إلى فوق ونتواضع أمام الحكمة التى تنزل علينا من منابع التنوير فى السبعين عاما الماضية !

وقد ظهرت في القرن السابع عشر رواية اسمها (الرواية ذات المفتاح) وهي عبارة عن رواية أحداثها حقيقية . ولكن أسماء أبطالها مستعارة . . أما المفتاح فهو أن يجيء المؤلف أو الناقد بعد ذلك ويكشف لنا الأسماء الحقيقية لهؤلاء الأبطال . . وكان ذلك حالنا مع الثلاثة الكبار . . ولكن كان حالنا معكوسًا . . . فقد كنا نشعر بأننا نعيش رواية ذات مفتاح . . أبطالها العقاد وطه حسين والحكيم وغيرهم . . ولكن كنا نتصور أن هذه الأسماء مستعارة . وليست حقيقية فنحن لا نعرفهم . والمسافة بيننا وبينهم بعيدة . وهم يروننا صغارًا جدًا . . . ونحن لم نعد نراهم كبارًا جدًا . . وهم يرفضوننا ونحن أيضًا . ولكن إعجابنا بالحكمة والسحر لا يزال قائمًا . . ولكنهم رجال لا إنسانية فيهم . . مفكرون بلا قلب . . أساتذة بلا طلبية . . فهم لا يروننا طلبية وإنما يروننا متفرجين في مسارحهم . . وإنهم مشغولون برسم أدوارهم البطولية . . .

أما أسماءهم الحقيقية فهي : أنهم فرديون رافضون . فلا كانوا سعداء بنا ، ولا كنا . . فيا صاحب السؤال لم تكن سعداء كما تتصور . . بل ربما أنت أكثر سعادة . فأنت لا تتوقع شيئًا ، فليس معك أو أمامك أحد تتوقع منه شيئًا . أما نحن فكنا نرى ونعجب ثم نجد الباب الخارجي والشارع والبيت ثم نمضغ المرارة ونحتضن اليأس وننظر إلى أيدينا وإلى سيقاننا فهي وسيلتنا الوحيدة لأن نمضى وأن نمشى وأن نصعد وأن ننظر من فوق ! .

بطل هذا الزمان غريب حزين عريان

لن تحتفل روسيا (الاتحاد السوفيتى سابقا) بمرور ١٥٠ عامًا على وفاة شاعرها الحزين لرمنتوف (٢٧ سنة) . وهو حزين لأنه غريب عن زمانه وهو غريب لأنه حزين . . وليس شاعرًا من لم يكن غريب الدار والألم . وقد تدفقت موهبته الشعرية وهو فى الثانية عشرة من عمره . ولأنه صغير السن باهر التجربة ، فقد كان يعود إلى صياغة قصائده وقصصه القصيرة يقول لرمنتوف : إننى أصرخ أولاً ، وبعد ذلك أحاول أن أجعل لصرخاتى وزنًا وقافية ! .

ويقول : وبعد أن أجد الوزن والقافية ، فإننى أضىء الحروف ثم أنثر النار بينها !

وروسيا لن تحتفل بشاعرها الحزين الغريب . . فالشعوب السوفيتية كلها حزينة . . فقد انهارت قصورها المذهبية . . وسقطت الشيوعية وهى دينها الذى خرج من الأرض ولم ينزل من السماء ، فهو دين له كتب مقدسة وله أنبياء ولكن ليس له إله . . ولو ظهر لرمنتوف فى هذا الزمان ما وجد شيئًا يقوله ، ولو وجد ما يقوله فإن أحدًا لا يفهمه . . وإذا سمعه وفهمه

فإن أحدًا لن يشدو به . . فليس إلا واحدًا من ٣٠٠ مليون غريب في أرضه
حزين على عرشه . .

ولرمتوف يرى أن الإنسان هو الملك المخلوع . .
هو القوى الذى لا قيمة لقوته ولا جدوى . .
فهو العملاق الأعرج ، وهو الوسيم الأعمى .
وهو العريان على سطح قصر جميل !

ولرمتوف من أصل اسكتلندى . فقد هاجرت أسرته في القرن السابع
عشر . أبوه فلاح فقير تزوج ابنة فلاح غنى . وكانت حماته تعيره بأنه ليس
إلا صفقة خاسرة وزواجه من ابنتها أكبر دليل على حماقة الفتيات
الصغيرات . أما حفيدها لرمتوف (١٨١٤ - ١٨٤١) فأكبر دليل على أن
الأرض الكريمة الراقحة من الممكن أن تخرج منها زهور بديعة الألوان جميلة
الشذى . . ولذلك قررت جدته أن تقتلعه من حضن والديه . فهو مختلف
عنهما . ويجب أن يبقى مختلفا . وأن تسجبه من عرش الأمومة والحنان .
فهى أحق به . وكان الشاعر (المخلوع) لرمتوف يعيش مدللا عند
جدته . . وإذا ذهب إلى والديه ، فلكى يعود في نفس اليوم . فأبوه وأمه لا
يكفان عن الشجار . . وكثيرا ما رأى وسمع أمه تقول لأبيه : خسارة فيك
هذا الولد الجميل . .

والأب يقول : من أين كان في استطاعتك أن تأتى بهذا الحس
المرهف . . إنه اسكتلندى وليس فلاحا روسيا غليظا . إنه ابنى !

وأدرك لرمتوف في سن صغيرة جدا : أن الشاعر يتيم . : أو يجب أن
يبقى يتيما . . له أب وأم ولكن لا وجود لهما في وجدانه . . وأن يكون
غريب الدم غريب الوجهة . . فبوشكين أمير الشعراء الروس زنجى
الأصل . . ولكن الشعر هو الذى ارتفع به فوق جدران الكون إلى السماء !

وكل قصائد لرمتوف لها معنى واحد : إن الإنسان قوى ، ولكنه عاجز

عن أن يفعل شيئاً له قيمة . . وإن الإنسان وحيد . . وإنه عند صناعة القرار يكون أكثر وحدة . ولكن ما القرار ؟ إنه شيء تافه . . فالإنسان هو الحيوان الوحيد القادر على التفاهة والسطحية !

فالإنسان تافه - هذا شعوره . .

والإنسان سطحي - هذه حاله . .

والإنسان أجوف - هذه آماله . .

والإنسان مثل شجرة اقتلعت من الأرض وألقيت على سطحها . .
فأرأسه في مستوى قدميه . وعقله في مستوى معدته . . فالكل على السطح . . سطحي . . تافه . .

ففى عصر القيصر نيقولا الأول ، عصر القهر والبطش . . والتمرد الخفى ، لم يكن فى استطاعة أى إنسان أن يكون إنساناً . . ولا فى استطاعة الشاعر أن يصنع شيئاً غير البكاء . .

وقد عرف لرمنتوف الطرد والنفى والسجن فى سن صغيرة . . فعندما مات أمير الشعراء بوشكين فى معركة تافهة نظم قصيدة عنوانها « موت شاعر » لم يستطع نشرها وإنما حفظها الناس وتناقلوها . فصدر حكم عليه بالطرد والنفى إلى مجاهل روسيا . . فقد كان يسخر فيها بالقيصر والعدالة وتفاهة الناس . يكفى أنه لا يحتقر عجزاً . وإنما هو يتباهى به يكفى أنه لا يشعر بأنه قزم الإرادة ، غريزى الدوافع ، وأنه نسى أن له رأساً يجب أن يكون قمة تكوينه النفسى والعقل . .

يقول لرمنتوف : عار أن تمر العاصفة علينا فنحنى لها رؤوسنا . . إن رؤوسنا لم يخلقها الله لتنحنى للعواصف ، وإنما للسيوف فقط . إن الله لم يجعل الإنسان قائماً مستقيماً مشدوداً ، لينكسر وينحنى أمام أى إنسان آخر مهما كان الذهب عند قدميه !

شيء واحد نحسد عليه الشعوب السوفيتية . إنها لن تحتفل بالشاعر
لرمتوف ، حتى لا يمل الناس اسمه . وحتى لا يكفوا عن قراءته . .
فمن عادة الشعوب الشرقية أن تسرف في حفاوة القادمين والذاهبين . .
الأحياء والأموات حتى يضيق الناس بالاسم والجسم . . وحتى يكون الملل
هو الهواء الذى يتنفسه الجميع . .

ومنذ أيام كنت فى فيينا فقرأت فى الصحف أن الشعب النمساوى قد
ضاق بالإرهاب الموسيقى لموتسارت . . ففى العام القادم تحتفل النمسا
والعالم بمرور قرنين على وفاة موتسارت . . ولذلك فالمطاعم والفنادق
وصالونات الحلاقة والسيارات والصحف قد امتلأت بموسيقى
موتسارت . . فلم يعد هناك إلا موتسارت فى كل هواء وعند كل طعام . .
فضاق الناس بذلك . . ولم يعد للناس خيار . . موتسارت ولا صوت
يعلو على موتسارت . . ولا اسم ولا رسم إلا لموتسارت . . فتعالت
الأصوات تطلب الرحمة وتطلب الحرية !

ونحن من أكثر الشعوب إرهاباً فى الحفاوة بالأحياء والأموات . . نظل
نغنى ونزمر ونطبل ونبكي ونصفق ، حتى يزهق الناس ويلعنوا اليوم الذى
ولد فيه والذى مات فيه صاحب المولد !

مرة واحدة فى تاريخ مصر كلها لم نستطع أن نشيع الملل والزهق رغم
عظمة الذكرى . ولكن ساعدنا على ذلك أن المحضى بهم ليست لهم
شعبية . . وإنهم فى نفس الوقت كثيرون كان ذلك فى عام ١٩٨٩ . عندما
مرت مائة سنة على ميلاد : العقاد وطه حسين وإبراهيم المازنى وعبد
الرحمن الرافعى وإيليا أبو ماضى وهتلر ونهرى وشارلى وكوكتو . والفلاسفة
هيدجر ومارسيل ونتجنشتين . . مر هذا العام بسلام . . فليس معروفاً
قدرهم عند الناس .

ورغم أهميتهم وخطورتهم فإنهم قد احتموا فى بعدهم عن العين وبعد

الناس عنهم . ولذلك فأسألوهم إذا ذكرت الآن لا يقابلها الناس بالتأوب والضيق بها والبحث عن وجهة أخرى تهرب إليها . .

ولرمتوف أمير الأحزان ، وشاعر الغربة ، والشجرة المخلوعة ، والزهرة المسحوقة الأوراق المنتشرة العطر عاش طفلاً ومات شاباً مثل كل الشعراء الرومانسيين . . فهو مثل أمير الشعراء بوشكين قد قتل في معركة تافهة مع ابن السفير الفرنسي . . ولكنه احترق بقوة ولأن الاحتراق والضوء كانا أقوى من احتماله فقد انطفأ في أوج عبقريته . . ولو لم يمض قتيلاً ، لمات مريضاً . .

ومثله الرومانسيون العظماء الصغار : شعراء الإنجليز روبرت بروك (٢٣ سنة) وكيتس (٢٦ سنة) وشيلي (٣٠ سنة) وبيرون (٣٦ سنة) . . والألمان نوفالس (٢٦ سنة) وفون كلايست (٣٤ سنة) وأمير الشعراء هيلدر لين عاش ٨٠ عاماً منها ٤٣ عاماً في مستشفى الأمراض العقلية . . والفرنسي رامبو (١٧ سنة) والشعراء الرومان : الإمبراطور نيرون (٣٠ سنة) وكاتولوس (٣٠ سنة) وستاتيوس (٣٤ سنة) وبوشكين (٣٦ سنة) والشاعران الروسيان اسنين (٣٠ سنة) . . وما يكوفسكى (٣٧ سنة) .

وعبقري الموسيقى في كل العصور موتسارت (٣٥ سنة) . .

فما الذى قاله شاعرنا المغترب حزناً ، والحزين غربة ، والأمير المخلوع والقتيل لأسباب تافهة . . وكل الأسباب تافهة ، مع أن السواعد قوية والعضلات حديدية ، والعيون نافذة والعقول واعية والقلوب واجفة . . ولكن لماذا هي تافهة ؟

إنه الشعور بالضيق . والشعور بأنه لا جدوى من شيء . ولكن لماذا لا يصبر الشعراء على الواقع حتى يتضح وحتى يتجسد ؟ لأن الشعراء لا صبر عندهم . . كيف تطلب من عصفور ألا يرفرف ، ومن بحر ألا

يموج ، ومن عاصفة ألا تهب ، ومن نار ألا تحمد فجأة . ولابد أن يكون موتها فجأة ، فقد كان ميلادها كذلك .

فما الذى قاله ؟

الكثير قاله شعراً . ولأنه شعر فهو رموز . ولأنها رموز فهي تشير إلى المعانى ولا توضحها . . فالشعر أصابع صغيرة لامعة بديعة تهمس من بعيد إلى المعانى الكبيرة . .

ولكن لمرمتوف قال الكثير فى رواياته وقصصه القصيرة . وأروع رواياته وأكثرها دلالة عليه وعلى عصره فى منتصف القرن التاسع عشر رواية اسمها « بطل هذا الزمان » - إنها خمس قصص قصيرة مستقلة ولكن مترابطة . . فالقصتان الأولى والثانية يتحدثان عن البطل وكيف يراه الناس من الخارج والقصص الثلاث الأخرى صورة البطل كما يرى هو نفسه . . والبطل هو الرواية ، والرواية هو الشاعر نفسه . . وإن كان يجذرننا فى المقدمة أنه ليس المقصود . ولكن الشعر هو أدب السيرة الذاتية أو هو أدب الاعتراف . . والأدب كله اعتراف . فهذا النفى يؤكد أنه الشاعر نفسه . .

والقصص يرويها الشاعر على أنها مقتطفات من مذكراته . . فهي مقتطفة مقتطعة مقتلعة من الذكريات . . فقد أوقف مسار الذكريات وانتقى ما يراه مناسباً فى الدلالة عليه ، والإشارة إليه . . وأبطاله فى هذه القصص : أوراق ساقطة على أرض جافة . . أو فى مياه ضحلة . . أو هى صفحات مكتوبة مطوية . . امتلأت بالكلام والتوى الكلام بعضه فوق بعض . . التوى وتكدس . . هذا هو الإنسان الرومى فى زمانه - وفى زماننا أيضاً ! وكل أبطاله هم صور اجتماعية نفسية لكل مواطن معاصر له ولنا أيضاً !

القصة الأولى تبدأ مع الخريف البارد ، الجليد والأوراق الصفراء الميتة . . والمناسبة حفل زفاف . وفى حفل الزفاف تظهر أميرة جميلة يتنافس

عليها الشباب ويتراهنون . . ويعلن أحدهم أنه سوف يعطى أخته لمن يكسب الرهان . والرهان هو أن يحصل على الحصان الذى يملكه أحد اللصوص . . ويكسب الأميرة واحد سرق الحصان . ويحيى صاحب الحصان ويقتل أخا الأميرة الجميلة ثم يخطف الأميرة هاربا وطاردوا اللص . وقتلوا الأميرة !

والأميرة وهى تموت يضحك أحد الشبان سعيدًا بكل ذلك ؟!

وفى إحدى القصص ذهب البطل إلى أحد الفنادق ، فاستقبله شاب أعمى وأعرج . شخص يرحب بأى زائر جديد ، ولكنه لا يعرف قيمة البطل ولا ثروته ولا قدرته . . والبطل يكره المرض والضعف والفقر . . ويباهر بذلك ولما عرف أن الفندق ليس به تمثال واحد للمسيح تشاءم من ذلك . . ثم قاده الأعمى إلى الشاطئ فرأى منظرًا غراميًا : فتى وفتاة جميلة . ثم رأى هذه الفتاة فى الفندق . . ودعاها إلى رحلة فى زورق فى البحر وحاولت أن تقتله . ولكنه هو الذى ألقى بها فى البحر . . وعندما عاد إلى الشاطئ كانت قد سبقتة وراحت تتحدث إلى رجل آخر . وعلى الشاطئ وجد الرجل الأعمى يحمل حقيبة ملابس هذه الفتاة . وعاد البطل إلى الفندق ليجد أن كل ملابسه وسيفه وأمواله سرقت !

ويعلن البطل فى قصة أخرى : إن هذه الحياة العاقلة الجميلة لا تناسبنى !

وفى قصة يسخر من تواكل المسلمين وإيمانهم بالقضاء والقدر . . وأراد أحد المسلمين أن يؤكد كيف أنه يستسلم لقضاء الله وقدره ، فصوب مسدسًا إلى رأسه . . وهو يقول : إن كان الله يريد لى الموت انطلقت الرصاصة الوحيدة إلى رأسى . . وإن كان يريد لى الحياة فلن تخرج من المسدس رصاصة . وضغط على الزناد ولم تنطلق الرصاصة . . ثم صوب المسدس على قبة معلقة وأحرقها . .

ويقول البطل : صحيح إن الرصاص لم ينطلق ولم يصب رأسه ، ولكنه رأى الموت لونا شاحبا ورعبا في عينيه !

وبعد نصف ساعة أطلق عليه رجل غمور النار ، فقتله . . والمعنى . أنه أراد أن يقتل نفسه فلم يستطع ، ولكن آخر قد قتله عن غير قصد فموته مكتوب عليه منذ ولادته . وشكل الموت ومكان الموت وزمانه !

وفي إحدى قصائد لرمثوف يقول ساخرا من هذه الفكرة .

إذا ما ذهبت إلى قريتي

قل لأهل : إنني كنت

في الميدان فانطلقت رصاصة

وتصادف وجود رأسي

في طريقها . فأصابني

فمت سعيدا من أجل

حياة قيصرنا العظيم ١٩

يقول لرمثوف عن كل شعراء الحزن ، وأمراء القلق ، وضحايا الصدفة . . بين السماء والأرض .

ملاك طائر في زرقه الليل

يغنى وهو يرفرف

والقمر والنجوم مسحورة ببهائه وروائه

يغنى مع الطبيعة ولها بعيدا

في جنات الله ، يغنى عظمة الله

في صوت حزين شجي

بلا خوف ولا زيف

في ذراعيه يحمل روحه إلى

الأرض المظلمة بالخطايا

الأغنية تنطلق من روحه
بلا كلمات ولكنها عميقة
وبعد أن هبط على الأرض
أحسست الروح أنها غريبة
ممزقة النزوات فاخنتقت
الأغنيات في أحزان الأرض وويلاتها !

وكان الشاعر لرمثوف أراد « توطين » وجدانه وخياله فكتب قصصا
شعبية فوقازية « بعنوان (إسماعيل بك) و (الحاج إبريق) وجعل منها
قصائد طويلة . . ولكنها جاءت مثل أشجار عالية وإرقة ولكن جذورها
على سطح الأرض . . فلا هي في الأرض ولا هي في السماء . .

وأجمل المعاني وأكثرها إلحاحا وتكرارا على وجدانه : قصة طفل خطفوه
وحبسوه في أحد الأديرة . ولكن الجدران لم تخرس صوته ، والسماء لم تنكر
صداه ، والأرض لم تلفظ دموعه . .

ويقول : إننا الرهبان الثوار . . إننا العفاريث في القماقم الزجاجية
تري وتقول ولكن أحدا لا يسمعا . . ولكن الزجاج لم يحجب الرؤية : أن
نرى وأن يرانا الآخرون . !

هذا الطفل المحبوس في دير قد هرب ، ثم عاد إلى بلدته ليجدوه ميتا
على أرضه . . خرج من بلدته وعاد ليموت فيها - هذه الدائرة المفرغة التي
يعيشها كل حزين غريب في زمانه وغريب عليه . .



فمن أنت أيها الأمير المخلوع في القرن التاسع عشر ، والمواطن العادي
في زماننا . . والمواطن العادي الذي هو ألوف الملايين هو أمير هذا الزمان
فمن أنت ؟

يقول : أنا القوي الأهرج . . أنا القادر على تحقيق كل شيء لا قيمة

له . . أنا الذى أملك قوة تنقلب ضدى . . أنا صاحب السهام المرتدة . .

قل لى من أنت ولكن بصورة أوضح . .

يجيب : أنا الذى عجز تمامًا عن اكتشاف رسالتى فى هذه الحياة . . أنا الذى لا أكف عن الكلام . . ولكن ما المعنى ؟ أنا الذى أحاول أن أقتلع المعانى من تفاهة الأيام . . ولكن ما الهدف ؟ إننى عجزت تمامًا عن أن أجعل لى رسالة . أنا المسكين فى يد القدر أقطع الرقاب بلا جريمة ، وبلا غضب ولا أسف ! أنا الذى ولدت فى هذا القرن لكى أعيش فى قرون قادمة وتحت أسماء لا نهاية لها . . أنا فيضان اليأس . . أنا إعصار الفراغ . . أنا احتشاد الغضب النبيل : رماده وصداه . . أنا أنت ، ولكنى أكثر شجاعة على مواجهة الموت ، وأكثر احتقارًا لكل ذلك !

من قوة العبث إلى عبث القوة يا قلب لا تحزن كثيرًا جدًا !

من أربعين عاما كانت للرئيس جمال عبد الناصر عبارة يصف بها حاله هو وزملائه الثوار . قال : كنا مثل ست شخصيات تبحث عن مؤلف وهى عنوان إحدى مسرحيات الأديب الإيطالى بيراند للو . .

أى إنه كان جاهزاً مستعداً للظهور على المسرح ، ولكن كل الذى ينقصه هو أن يجد مؤلفا يكتب له نصا مناسباً . والنص المناسب هو الذى يصور آماله وآلامه أمام جمهور أشد قلقا على أن يتفرج على المسرح بتشخيص من شباب . . نائر كافر بها وصلت إليه مصر . .

وكان المؤلف هو جمال عبد الناصر . .

والنص الأدبى الذى كتبه عبد الناصر لم يكمله على الورق . وإنما أكمله على الواقع . . وترك النص الأدبى للمتفرجين يكملونه على هواهم . . أما هو فانشغل بصياغة القلق الوطنى والأمل القومى . .

وتعددت وتنوعت النصوص بعد ذلك وكذلك الشخصيات

والمتفرجون . . ولم نعد بعد ذلك في أواخر الخمسينيات قادرين على أن نميز بين الكاتب والمتفرج والممثل . فمن الممكن أن ندير ظهورنا إلى المسرح ونفرج على المتفرجين . . ومن الممكن أن نظهر على المسرح ونشارك في التأليف الفوري والارتجال المباشر !

وفي نفس الوقت كانت مسارح باريس تعرض أشكالا وألوانا من المسرح الذي عرفناه باسم (مسرح العبث) . وترجمناه في مصر خطأ بمسرح اللامعقول . لأنه مسرح معقول ومنطقي وفلسفي وله معنى وله أول وآخر . . وكانت المسرحيات من تأليف عدد من المهاجرين إلى باريس . . والذين يتكلمون اللغة الفرنسية كلغة ثانية : بيكت الإيرلندي ويونسكو الروماني وإرابال الأسباني وشحاده السوري . . وهؤلاء الأجانب عندهم مشكلة هي اللغة . . فاللغة غريبة عليهم والجمهور أيضًا . وهم يشعرون بأن اللغة غير قادرة على نقل معانيهم . . أو أن اللغة قادرة ولكنهم غير قادرين . وهذا العجز جعلهم يشعرون بالغربة مرة أخرى . . فهم غرباء حتى إذا لم يتكلموا فإذا تكلموا فهم أكثر غربة . .

ومعنى أنهم غرباء : أن المسافة كبيرة بينهم وبين الناس . . كان الناس بعيدين يرونهم ولا يسمعونهم ، وإذا سمعهم ، فلا يفهمونهم . . وبدلاً من أن يحاول هؤلاء الغرباء أن يتقنوا اللغة الفرنسية ، فإنهم يشعرون بأنه لا أمل في أن يسمعهم أحد . . ولا أمل في أن يفهمهم أحد إذا استمع . . ثم لا جدوى من التعبير والإفهام والاستمرار في الكلام . .

فالناس جميعاً غير قادرين غرباء حتى في بلادهم . . فلا كلام بين الناس ولا حوار . . ولا هدف ولا أمل . . فقد ولد الإنسان غريباً ليعيش أغرب ويموت وكأنه لم يولد !

والعبث معناه : النشاز في الموسيقى . .

فالنشاز موسيقى أيضًا . .

ومعناه أيضًا : أنه لا معنى . . ولا فائدة . . ولا جدوى . . ولا قيمة . . ولا أمل . . ولكن العبث ليس معناه : الكلام الفارغ . . حتى لو كان الكلام يبدو فارغًا فهو ليس كذلك . . والأدباء عندما يتحدثون عن الفوضى مثلاً ، فإنهم يتكلمون عنها بنظام ومنطق . . تماماً مثل دراويش نجيب محفوظ . . فإنهم جميعاً في حالة من الهذيان ولكنه هذيان مدروس . . هذيان قد وضعه المؤلف في المكان المناسب وليخدم معنى في العمل الفني كله . . ومثل رواية (العبيط) لدستوفسكى . . صحيح أن البطل عبيط ولكن المؤلف درس البطل بمتهى العقل والذكاء والحكمة . .

وفي الأربعينات انتقلت إلينا الفلسفة الوجودية . . كانت في أوروبا تعبر عن التعويض الروحي لما أصاب الناس بسبب الفلسفات الشمولية . الشيوعية والنازية والفاشية . . فقد قامت الدولة على جثث الأفراد . . وسحبت الحريات الشخصية وكدستها في بنوك الأحزاب السياسية . ثم انهارت هذه النظم كلها . . وتساقطت أنقاضها على وجدان المفكرين وقلوب الشعراء . . فجاءت الفلسفة الوجودية تؤكد أن الأصل هو الفرد . وأن الفرد هو الحرية . وأن الحرية هي الاختيار المستمر لكل شيء . والذي لا يختار فليس حراً . والذي ليس حراً فهو غير مسئول . والذي ليس مسئولاً فوجوده عبث وذنيه عبث أيضًا !

وبعد الوجودية ظهرت مسرحيات العبث في مصر في الستينيات . . نقلناها عن المسارح الفرنسية . . موضة جديدة مع موضة (النيلوك) أى الفستان الطويل إلى ما تحت الركبة وهو من تصميم كريستيان ديور . . والفساتين الطويلة تحتاج إلى أقمشة أكثر . ورغم أن الناس لا يجدون ما يأكلونه ، ولكن هذا هو حكم القوى على الضعيف . والقوى هو مصمم الأزياء . والرأى لباريس ، وليس على العواصم الأخرى إلا أن تطيع . فسمعت وأطاعت . . وما طالت الفساتين إلا لكي تقصر بعد ذلك في موضة « المينى جيب » . . والميكروجيب . . وعلى الرغم من أن الأقمشة

قد توفرت ، فإن الفساتين قد استقرت فوق الركبة . . وفوق فوق الركبة .
ولا يزال الحكم للأقوياء على الضعفاء . . والأقوياء هم مصممو الأزياء
والضعفاء هم الرجال الذين تسحبهم زوجاتهم طائعين ضائعين إلى محلات
الأزياء !

وكذلك ظهر مسرح العبث في مصر - صدى للمسرح الفرنسى .

ولم يكن ذلك صدى فقط . . وإنما كان يصور واقعا نفسيا لضياح
سياسى واقتصادى ثم انهيار عسكرى بعد ذلك . . ففى الستينيات حارت
العقول وتحيرت الأقدام فى الأيدى ، وزاغت العيون بين النظر إلى المسرح
وبين النظر إلى المتفرجين . ولم يعرف أحد بالضبط أين يجلس المؤلف وأين
تظهر الشخصيات الست التى تبحث عنه !؟ .

إن ضبابا من اللامعنى واللاجدوى واللامنطق قد شاع بين الأشياء
والناس - أى فى العلاقات الإنسانية . وهذا المعنى هو الذى أعطى لمسرح
العبث حق الإقامة فى مصر . . ثم أعطاه الجنسية المصرية . فهو مصرى
بين مصريين . .

وظهرت فى القاهرة مسرحية « فى انتظار جودو » لصمويل بيكت .
وهى محاورات بين رجلين يجلسان على المسرح فى انتظار واحد ثالث أن
يجيء . ولكنه لا يجيء . وعلى الرغم من أنه لم يظهر على المسرح فانتظاره
وتوقعه وضرورة أن يحضر يجعل هذا الشخص الثالث موجودًا طوال
الوقت . .

فهو الغائب الحاضر . . أو هو الفريضة الغائبة . . أو هو الله . . أو
هو المعجزة . ولكنه لا يجيء !

وظهرت مسرحية (الكراسى) للأديب يونسكو وعلى المسرح رجل
وزوجته . عندهما حفلة ويتوقعان مجيء الضيوف . ضيوف كثيرون . وقد
امتلا المسرح بالمقاعد الخالية انتظارًا للضيوف . ويجيء الضيوف . . هذا ما

يقوله البطلان . ولكننا لا نرى أحداً . ثم يطلبان إلى الضيوف الوهميين أن يجلسوا بعد الترحيب الشديد . . ويمتلئ المسرح بالضيوف الذين لا نراهم . .

ويرى المؤلف أن أعظم تحية من الممكن أن توجهها له هو ألا تذهب لمشاهدة المسرحية . . في هذه الحالة فقط يشعر المؤلف بالامتنان العظيم . . لأنه أراد أن يجعل المسرحية صورة للواقع . . فعلى المسرح مقاعد خالية وفي الصالة مقاعد خالية . وهذا بالضبط ما أراد أن يقول . . أراد أن يقول : إنه لا أحد هناك يسمع ويرى . . والذين يسمعون لا يرون والذين يرون لا يسمعون . . هناك فراغ . . هناك مسافات . . هوة . . بين كل الناس . . هناك غياب يزداد اتساعا وعمقا وكثافة وألما !

وفي ذلك الوقت كانت لى مسرحية اسمها (الأحياء المجاورة) بطولة حمدى غيث وسناء جميل . . اثنان فقط على المسرح ويتوقعان طوال ثلاثة فصول أن يجيء أحد . . أن يدق الباب أحد . . فهناك جريمة قد ارتكبت ولكن العالم الخارجى يصلهما عن طريق الراديو . .

أو وقع أقدام على السلم أو أمام الباب . . والحوار عنيف بين الرجل وزوجته . . أحدهما يحاكم الآخر ويدينه . . ولا ينقصهما إلا التصديق على هذا الحكم بالإدانة من شخص ثالث أو رابع أو المجتمع كله . . ولكن الجريمة قد اكتملت . والحكم قد صدر . ولا أحد يجيء !

ثم أصدر توفيق الحكيم مسرحية (ياطالع الشجرة) . . والعنوان مأخوذ من أغنية فولكلورية عبثية . . الأغنية تقول « ياطالع الشجرة هات لى معاك بقرة تحلب وتدينى » بالمعلقة « الصينى » بقرة على شجرة يتنقل لبنها فى ملعقة صينية !

وفي رواية (يوميات نائب فى الأرياف) لتوفيق الحكيم تمجد وإحدًا يغنى ويقول : ورمش عين الحبيبة يفرش على فدان - رمش عينيها يغطى فداننا

فكم يكون حجم عينيها وشفتيها ورأسها وحجمها كلها . لا تهم هذه الحسابات ولكن الصورة الجميلة العبيثة هي التي تهم . .

وفي نفس الوقت غضب طه حسين على عبث توفيق الحكيم وقال لى أيامها ونحن نتفرج على مسرحية أخرى لتوفيق الحكيم بطولة يوسف وهبى اسمها (الأيدى الناعمة) : إن أخانا توفيق الحكيم يريد أن يخالف الناس ليعرفوه أكثر . . وكل هذا الذى جاء به أخونا الحكيم قد طالعناه عند الشعراء الفرنسيين : بودلير وفرلين ولتريومون . . كلهم كانت لهم مثل هذه الهلوسات . . والفارق بينهم وبين الحكيم أنهم أخف دما والطف !

والأستاذ العقاد هاجم الفلسفة الوجودية . ووصفها بأنها مريضة . لأن العقاد يرى أن الذى ليس منطقيا فلا وجود له . . وأن الذى لا يدخل العقل فإنه يخرج منه . والفلسفة الوجودية لا تحل مشكلة القلق وإنما هي تزينه للناس . ولا تؤمن بالحياة أسلوتا وهدفا وإنما تدعو الناس إلى الموت . .

ويتساءل العقاد : كيف أحترم من يقول لى دائما : اترك مكانك واذهب إلى المقابر وادفن نفسك حيا . كيف أحتفل بمن يريد أن يجعل حياته جنازة أنيقة ودمارى هدفا لكل حياتى !
وانحسرت موجة العبث . .
وتأكلت الفلسفة الوجودية أيضا

* * *

وفجأة دعانى صديقى اللواء محمود صاحب إلى مشاهدة مسرحية . المسرحية والشخصيات والمؤلف والمتفرجون كلهم فى (سجن مصر) . جو كثيب رهيب . عذاب فى عذاب . . جلست فى مسرح غسلوه . . غسله المتفرجون والممثلون والمؤلفون . . ووضعوا مقاعدنا فى الصف الأول وهم جلسوا وراءنا . . وكانت حاجتى إلى الهرش فظيعة . . فعيونهم سكاكين

واير تنغرز في جسمى . . فهم ليسوا متفرجين عاديين . . . ليس صحيحًا أن المسرح أمامى . . المسرح ورائى . ومهما حاولت أن التفت إلى الأمام . فالذى ورائى أعنف أشنع أبشع . . وإذا حاولت أن ابتسم فعلى أى شىء؟ على الذى أراه ، أو على الذى أتخيله ورائى . . أو على أننى جئت من عالم آخر إلى هذا العالم وراء الجدران الباردة والزنازين المظلمة . . إن سعادة هؤلاء السجناء أنهم بعيدون عن الجدران الباردة . . إنهم يتمنون كل الذى لا أتمناه . يتمنون أن تظل المسرحية معروضة أياما . . ففى هذه الأيام حريتهم ورد اعتبار لهم . . فقد جعلتهم المسرحية بشرًا وليسوا حيوانات كسيرة ذليلة سجيئة . .

وتلخبطت كل المعانى فى رأسى . . ولم يستقر المقعد تحتى . . فأنا أريد أن أهرب . . فمن الذى يستطيع أن ينظر فى مئات العيون البليغة الألم والأرق والقلق . .

والمرشحة كان اسمها (افريح ياقلبى) - تصور هذا العنوان . . والمرشحة تروى حكاية أمل . . واحد تقرر الإفراج عنه . وبدأ يودع الناس فى السجن ويودع الحراس وكلمة من هنا . . وكلمة من هناك . . وتوجيه ونصيحة . . وتأکید مستمر للتوبة . . توبته عن قراءة الصحف ابتداء من صفحة الوفيات . . أعلن البطل أنه لن يقرأ الصحف بعد اليوم . . وعلى باب السجن وجد أهله يبكون ولم يجرؤ واحد أن يقول له عن سبب البكاء . . لقد ظن أنهم يبكون سعادة به . . ولكن هناك فرقًا بين دموع الحزين ودموع الفرحان . . كلها دموع . . ولكن الوجه هو الذى يشرح معانى الدموع . . إنهم فى غاية الحزن . ولم يفهم . ولم يقل لأحد شيئًا . وإننا وجد أحد أخوته يعطيه الصحيفة التى انفتحت على صفحة الوفيات . . لقد أصيب بالرعب وعاد هاربًا إلى السجن . . وهو يقول إن هناك إصرارًا على أن أبقى فى السجن !

والمرشحة هى قمة الوجودية والعيشية معا . . إنها نسيج من الوجودية

ومن العبث معا . . من الحرية المؤكدة ، وعدم جدواها المؤكد أيضا !

* * *

هل انحسرت الوجودية والعبثية معا لأن الواقع أقوى من المسرح ؟

هل لأن الأشخاص الذين يبحثون عن مؤلف قد أصبح عددهم
مئات . . ملايين المؤلفين . . وأن المؤلفين أغلبية ساحقة . ولذلك كان
لا بد أن يظهروا هم على المسرح معبرين عن الأغلبية . . وما داموا مؤلفين
يمثلون على المسرح . فمن حقهم أن يرتجلوا كل يوم كلاما . . وبذلك
يدوسون قواعد المسرح والمسرحية . . ثم إن القواعد هي من صنع
المؤلفين . . فالمسرح ملك لهم . .

ولما ضاقت المسارح عن الناس . . تحولت بيوت الناس إلى مسارح . .
كل بيت مسرح . . وفي كل بيت تدور المحاورات والحوارات . . وكلها
تنويعات على عبارة نسبت إلى سعد زغلول باشا قالها وهو يموت . العبارة
مفيش فايده !

ولم يختلف العبث إلا على أنه مسرح يتفرج عليه الناس . . ولكنه تسرب
إلى بيوت الناس دخانا . . غائرا . . ترابا . . هبابا . . إن العبث لا يزال
هناك بعيدا عن المسرح ولكنه في عقول وقلوب الناس . . وفجأة ظهر
العبث بصورة أخرى .

ظهرت المسرحيات الكوميديّة الهزلية . . مسارح الهاهأة . . مسارح
الاساتوك . . ورقصني يا جدد . .

وكلها مسرحيات تضحك بالقوى من الناس وعلى النفس أيضا . كلها
ضحك وحشيش . . أو كلام كالحشيش . . وكلها نقد للناس . .
وللمشعب والحكومة . والناس يضحكون وسعداء بذلك . . ولكن هذه
المسارح هي مخالفة صريحة لمعنى المسرح الكوميدي . . فالمسرح الكوميدي

هو الذى يجد فيه الناس عيوبهم ويضحكون عليها . . ويكون الضحك
علاجاً . . أى يشعر الإنسان بأنه أضحوكة . ويخجله ذلك . ويندم . ثم
يقرر وهو فى المسرح ألا يفعل شيئاً بعد ذلك !
هذا هو التشخيص والعلاج المسرحى من أيام أستاذنا العظيم أرسطو
أى من ٢٦ قرناً !

ولكن هذه المسرحيات الهزلية تسخر من الناس . والناس يسخرون من
المسرح . فهى تقول وهم يضحكون . وينتهى كل شىء عند باب الخروج
فكانهم لا سمعوا وكان أحداً لم يقل !
ومعنى ذلك أنه لا جدوى من النقد المسرحى . ولا هدف للضحك .
وإن هناك اتفاقاً غير مكتوب بين المؤلف والمتفرج هو : أننا نحن اثنان
لسنا جادين . لا أنت جاد فى نقدك ولا أنا جاد فى عدولى عن هذه
العيوب !

وبذلك يكون المسرح واقعياً تماماً : لأنه صورة من الناس . فالناس
غير جادين . والمسرح أيضاً . والناس لا يرون أن هناك علاجاً لأى شىء
ولا أمل فى ذلك . والمسرح أيضاً .

وكما اعتادت المسارح على شتيمة الناس ، اعتاد الناس على تجاهل
ذلك . .

فكان المسرح ما قالت شيئاً ، وكان المتفرجين ما سمعوا شيئاً .
والمسافة شاسعة بين الشخصيات وبين المؤلف وبين المتفرجين . . كان
المسرح بلا ممثلين وكان الصالة بلا متفرجين . . وكان الممثلين يمثلون
الفراغ حتى يجيء شخص ما يقسم للناس على المصحف أنه جاد . . وأنه
يعنى كل كلمة يقولها . وأن هدفه هو إصلاح حال البلد . . ولكن هذا
الشخص لا يجيء ومهما أقسم للناس بأنه سوف يجيء ، فالمتفرجون
يقسمون أنه لم يجيء وحتى لو جاء فسوف يظل غائباً . وليس هذا قرار

المؤلف وإنما هو قرار الجمهور . . فالجمهور عاوز كده . . ولا رد لقضائه !
وهكذا ترى أن العبث في مصر كانت له مراحل - وكلمة مراحل من
أكثر الكلمات شعبية على السنة الحكام وهي أكثرها سخافة وفراغاً من أى
معنى . .

مرحلة العبث الحزين - منذ كان جمال عبد الناصر يبحث عن
مؤلف . .

ومرحلة العبث الضاحك - أى عندما قررت الشركات المسرحية أن تقدم
للناس ما يريدون . فقدّموا مسرحيات الهاهأة . ورفعوا أسعار التذاكر .
ولكن هذا الارتفاع كان أكثر إغراء للناس بأن يذهبوا . . وأن يخرجوا
مستريحين لأنهم ضحكوا على قدر قلوبهم . .

وشكا المثقفون من التهريج المسرحى الذى طال وانتشر وكسب
الملايين . . ولكن الشركات المسرحية مضت في تنافسها . فهي تخرج
الفكاهة بالرقص الاستعراضى والرقص الفردى . . إنها تضيف إلى النكت
شيئاً (فوق البيعة) . . فهي محاولة من أصحاب الشركات المسرحية في
إطالة عمر المسرحية . . وعلى المسرح الآن مسرحيات عمرها سبع سنوات
وخمس سنوات . . إذن الجمهور يريد ذلك وعلى استعداد لأن يدفع كثيراً .
فنزولاً على رغبة الجماهير قررت الشركات المسرحية أن تبقى وأن تستعد
لمسرحيات جديدة وفيها إضافات جديدة . .

والرأى الآن كما كان أيام ياطالع الشجرة ، أن نكتفى بهذا القدر من
الجلس ونبحث عن شيء جاد . . شيء يحترم المتفرج والقارئ . . أى لابد
أن نلم المسرح والممثلين والمتفرجين . . كأن ضمير المسرح قد استيقظ
وكذلك الممثلون والمثقفون . ولابد من عمل شيء .

فكان الشيء هو مسرحية (كاليجولا) للأديب الفرنسى كامى . .

ومسرحية كاليجولا هي إحدى قمم العبث في الأربعينات في أوروبا . .
فبطل المسرحية هو الإمبراطور كاليجولا . . الذي يجسد لنا كيف تصبح
القوة عبثا . .

فالمسرح إذن - قد انتقل من (قوة العبث) . . إلى (مسخرة العبث) . .
وأخيرا إلى (عبث القوة) . .

فالإمبراطور (نور الشريف) شاب قوى يفعل ما يشاء بالعقل
والمنطق . فهو قد أضاف إلى قوته منطقا . فالمنطق قوة . والقوة منطق .
وهو قادر على كل شيء . قادر غادر . ولا فرق بين القدرة والغدر . فهو
يفعل ما يشاء عندما يشاء بمن يشاء وعلى النحو الذي يشاء . .

فكأننا - بوعى أو بغير وعى - عندما أردنا أن نصلح المسرح نقلنا العبث
إلى أكثر المسارح أناقة وفخامة . . فكأننا قمنا بإحياء العبث بصورة من
الآلهة . . وقدمنا عبثا جديداً لإصلاح عبث قديم . . ودخل كاليجولا
المنافسة غير المتكافئة مع عادل أمام ومحمد صبحي وسمير غانم وشرهان !
فما الذي تغير إذن ؟ . إن سعد أردش الذي كان يمثل قوة العبث صار
مخرجا لعبث القوة . .

ونحن عندما قدمنا العبث في الخمسينيات كان تقليداً لأوروبا . . ثم
توطينا للعبث في مصر . . ولكننا الآن نؤكد أن العبث كان حقيقة . . وأن
هذه الحقيقة لم نستوعبها في ذلك الوقت . . ولكن بعد مضي أربعين عاما
نؤكد أننا لم نكن عابثين بالعبث . . وإنما كنا مبشرين به . واليوم أصبح
العبث واقعا عمتدا على الأرض وتحته . حتى ظهر حقيقة مؤكدة . .

إذن نحن لم نكن جادين عندما سحبتنا مسرحيات العبث من المسارح
في الستينيات . . فهي لم تنسحب . . وإنما انتقلت من وراء الكواليس إلى
ما بين صفوف المتفرجين . . ثم إلى البيوت والمكاتب . . إلى الأقلام
واللوحات والأغنيات والكباريات أيضا . .

كأننا أغلقنا المسارح الجادة وعلقنا عليها لافتة تقول : مغلقة
للتحسينات . .

وجاءت التحسينات . فشكراً لفاروق حسنى وزير الثقافة وللدكتور
فوزى فهمى رئيس الأكاديمية . . فالتاريخ يكرر نفسه ولكن بأشكال
مختلفة ولأسباب مختلفة . .

فلا تزال الشخصيات تبحث عن مؤلف . ولا يزال هذا المطلب
نيلاً . . ولكن هذه الشخصيات ليست جادة في بحثها . . لأنها ليست فى
حاجة إلى مؤلف . يكفى أن تظهر وتقول أى كلام . . فلم نصل بعد
مؤلفين وممثلين ومخرجين إلى مرتبة الناس الجادين . . فى آمالنا وفى حرصنا
على تحقيقها . . لا نحن صادقون مع أنفسنا ، ولا مع الجمهور . . وما دام
الكذب والجبن والنفاق هواء يتنفسه الجميع ، فمن أين يولد النص
العظيم . . القادر على شفاء النفوس . .

الحقيقة المؤكدة فى حياتنا هى : أننا حلوين قوى . . كده رضا 1

* * *

إننى لا أمل النظر إلى اللوحة الوحيدة التى رسمها الفنان الكبير صلاح
طاهر عن السلام سنة ١٩٧٨ . . لوحة ضخمة . . طويلة عريضة ألوانها
من الأصفر الغامق والفاتح . . والبنى الناعم ولون الصحراء . . واللوحة
تضم حشدًا من الناس رفعوا أيديهم إلى السماء . . الوجوه ليست واضحة
ولا ملابس الإحرام التى يرتدونها . . ولكن سواعدهم هى أوضح ما فى
الصورة . . وسواعدهم هى تجسيد لدعواتهم إلى السماء . . وفى السماء
قرص أبيض . . لا هو شمس ولا هو قمر . . وإنما نوع من التجلى . .
وقد تحولت شعاعات التجلى إلى حمامات بيضاء . . أسراب من الحمام . .
وهذا الحمام لا يسقط فى الأيدي الضاربة إلى الله . . وإنما يتجه بعيدًا عن
هذه الأيدي . . كأن دعوات الناس لم تبلغ السماء . . وكأنها عندما بلغت

سقطت مرفوضة . . وأكبر دليل على ذلك أن الحمام قد ابتعد عنها . .
وكما إن الأيدي دعوات ضاربة ، فالحمام استجابات هاربة بعيدًا . .
فلا الحمام اختفى ولا التجلى انطفأ ، ولا الأذرع انكسرت وانحسرت . .
وإنما الدعاء مستمر . . والفيوض السماوية متدفقة . .
والكل في انتظار (جودو) والتأمل المستمر في هذه اللوحة هو تأكيد
لهذا المعنى . . لهذا الأمل الذى عمره أربعون عامًا فى أن يظهر هذا المؤلف
بيننا وعلى مسارحنا . . وألا يكون كاليجولا أبدًا ! .

محتويات الكتاب

كلمة أولى : من آدم وحواء إلى حرب النجوم !	٠٠٥
ذلك النوع من النساء : لا تحب أن تكرهها ولا تكره أن تحبها ؟	٠١٩
عذابها : لذتها ! لذته : عذابها !	٠٣٠
الرجال يفضلونها : صفراء !	٠٤٤
أخيرا رأيت الذين هبطوا من السماء !	٠٥٤
فضيحة الغرفة المجاورة لمكتب الرئيس !	٠٦٦
١٠ دقائق وثانية واحدة بعد أن خلق الله	
هذا الكون الذى يتمدد !	٠٧٦
يقول أناس : لو وصفت لنا الهوى	٠٨٥
٥٠ عاما على العار والدمار فى بيرل هاربور	٠٩٧
شالوم عليخيم أيها العرب وسلام علينا أيها المصريون !	١٠٩
يقلعون الأشجار ويزرعون المسامير !	١١٩
(١) هموم .. كلها هموم !	١٣٢
(٢) ماتت الدنيا ..	١٤٣
(٣) اسم هذا الزمان ..	١٤٩
(٤) أنت .. واحد من هؤلاء !	١٥٧
(٥) وكانت هذه آخر أنفاسه !	١٦١
.. ولم يكن شيخنا الشيطان !	١٦٩
بطل هذا الزمان غريب حزين حريان	١٨٠
من قوة العبت إلى عبت القوة ياقلب لا تحزن كثيرا جدا !	١٩٠